من مخطوطات علماء قسنطينة:
جواهر المكنونة في العلوم المصونة

الجواهر المكنونة في العلوم المصونة

للشيخ عبد الحفيظ الخنقي

التعريف بالمخطوط:

به 178 صفحة، في كل صفحة 24 سطرا خطه مغربي، وعلى حواشيه عدة عناوين، وحاشية ص6 بها سند الشيخ عبد الحفيظ الصوفي، وعليه بعض التصحيحات، وتغير الخط ابتداء من ص67، وأصبح خطا رقيقا.

نسخه الناسخ لشيخه الحاج سعيد بن سيدي الأطرش بن العياضي، والناسخ هو: يحي بن الشريف بن أحمد بن الزلاتي بن عبد العزيز الشريف، وتاريخ النسخ 13 ربيع الأول عام 1308هـ.

الشيخ حريص على لغة كتابته، ويوصي بإصلاحها لفظا ومعنى لمن كان أهلا لذلك1.

استهل كتابه بالكلام في بعض آداب الذكر، وشروط الخلوة» ومن شروط السالك في سلوكه: أن تجلب الفكرة في ذكرك، والاعتبار في مصنوعات الله تعالى لأن الذكر ينتج الفكر، والفكر ينتج الاعتبار، والاعتبار ينتج العلم، والعلم ينتج المعرفة، والمعرفة هي نجم المريدين، وقمر السائرين، وشمس العارفين»[2] والتخلية من كل صفة مذمومة، والتحلي بكل صفة محمودة من الأخلاق، والترقي في ذلك

1- «ويجب عليه (القارئ) إصلاح الألفاظ، والمعنى في اللغة، إن كان أهلا لذلك، في هذا المختصر (...) وأما الكلام في اصطلاح القوم، لا يبدل ولا يغير» ص243، وقال أيضا: «ويجب على كل من له فهم في اللغة والمعنى أن يصلح الخلل في هذا الكتاب، لأننا قاصرون وعاجزون، وألسنتنا فاسدة لا محالة، ولكن ألجأنا لذلك عدم غرضنا وإلا لم نصلح لهذا المنوال، ص233، فهو يعترف بقصوره وعجزه، ولغته في الكتاب تحتاج إلى صقل وتصحيح إذا وجد من يفعل ذلك.

2- المصدر نفسه، ص69-33-32.

«حتى تستغرق في العبادات والأذكار حسّا ومعنى، وتمتزج الكلمة المشرفة[1] بدمك ولحمك، حتى يصير بدنك كله يذكر معك (...) تصير لك العبادات خلْقا وخُلُقا، والذكر نارا ونورا، نار تخلية من الذنوب، ونور تحلية»[2].

ويعرف المكاشف بأنه «هو الذي انكشفت له معايب نفسه، واشتغل بتنقية عيوبه»[3].

أما المشاهد «فهو الذي يشاهد الحق حقا، والباطل باطلا»[4].

ويعرف المحقق بأنه «هو الذي تفتقت له حجب الأسرار، وتمكن سره من الحقائق المكنونة، في علم غيبه، وبقي بالحق روحانيا مع الروحانيين، فهذا عبارته أعلى العبارات، وإشارته أرفع الإشارات، وتجلياته أمكن التجليات، وقربه أحق القربات، لأنه قريب من الحق، بعيد من الباطل»[5].

وتختلف المشاهدات باختلاف القلوب وأحوالها: «وأرباب القلوب تختلف مشاهدتهم في تجليات الحق، وعلى قدر الإخلاص تكون المشاهدة، فمنهم من يشاهد الخلق أولا كما تقدم، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق، ومنهم من يشاهد الخلق في الحق، ومنهم من يشاهد الحق في الحق، وهذا مقام كامل لا يفهم معناه إلا أهله المتصفون به»[6].

وما ذكرناه- يقول المؤلف- يكفي إن شاء الله، لأن ذكر شروط الطريقة وآدابها كلها مذكورة في الرحمانية، ومن أراد الدواء والطب النافع لعلله فعليه بالرحمانة، لأنها رحمة للإخوان، وقمع للشيطان، ومحو للعصيان، ونحن ذكرنا

1- هي لا إله إلا الله.
2- المصدر نفسه، ص76، وهنا ينسب هذا إلى الشيخ عبد الرحمن باش تارزي في الرحمانية.
3- المصدر نفسه، ص83.
4- المصدر نفسه، ص83.
5- المصدر نفسه، ص83.
6- المصدر نفسه، ص113.

منها شيئا أي شرحنا شيئا من بعض ألفاظها بحسب فهمنا في ذلك، أردنا أن نتكلم ببعض ما ألهمنا الله به، ووفقنا إليه في خرق عادات الأسرار، ومعارف الأوعاروشوارق الأنوار، وما يصلح بأحوال المريدين، وما لا يصلح، وما يجوز في حقهم وما لا يجوز، وما يحسن لهم السير في الطريق، وما لا يحسن، وما يهدم لهم عوائد النفس، وما لا يهدم، وأردنا أن نبين لهم كيفية السلوك، وما يكون لهم دالا على سلوكهم، حتى يعرف كل أحد منهم مقامه، وما هو عليه في سلوكه، أو غير ذلك مما تدعيه النفس في حالة ترقّيه، وزعم مراده.

وسأذكر إن شاء الله في كتابنا هذا وأبيّن ما يناسب أحوال التلامذة الطالبين المسلكة في سفرهم، ونأتي لهم بألفاظ غريبة الفهم قريبة المعنى، لمن نور الله بصيرته في علم السر، والقلب والروح والخفاء وسر السر، وغير ذلك مما أردنا ذكره، وأردنا الكلام بعد هذا في درجات الجنة ومقامات أهلها، وكيفية الترقي فيها، والنزول إليها، والمرور عليها إلى غير ذلك مما عليه أهل الجنة في منازلهم، وكيفية الوصول إلى المقام الرفيع منها.

إحتوى المخطوط المحاور التالية

-أحكام الروح

-الكلام في حقيقة الفناء أحكام الروح

-الكلام في حقيقة الفناء البحث في سر الخفاء

-ذم الدنيا ومدح الخارج عنها الكلام في العقل

-الكلام في الاغترار

-الكلام في سالك مقامات التدريج العيون أهل المقامات

-سكرات الموت

-التجليات

-فتح البصيرة

-فضائل السر المصون المكاسب والمواهب

-معنى المكاسب

-معنى مقام الدرجة الرفيعة

أحكام الروح:

يقول المؤلف:»أردنا أن نتكلم على ما شاء الله وأراده من أحكام الروح وعلو مرتبته، وسمو أحواله السنية، والروح علوية، كما أن النفس سفلية، لأنها تسفل بصاحبها إلى سجين الطبيعة، ولذلك خلق الله تعالى النفس مع البدن البشري، حيث خلق نطفة وامتزجت به، إلى غير ذلك مما يطول ذكره. فالكلام على النفس وخلقتها مع البدن أعني النفوس خلقت مع الأبدان، والأرواح خلقها الله قبل خروج الكون، وخلقت في سابق عليه، فعاهدها وأخذ منها عهودا ومواثيق، فمنهم من نقض العهد، ومنهم من أكمله أي أتمه، ومنهم من أنقص منه، ومنهم من زاد فيه، إلى غير ذلك مما هو مذكور في الآثار والكتب المنزلة في حق الأرواح، وخلقهم في سابق الأزل، يصدق عليه قوله تعالى ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾[1]، هو الأول قيل هو روح محمد صلى الله عليه وسلم، خلقه

1- الحديد/ 3.

وقيل هو الأول يعني هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يؤذن له في الشفاعة، وأول من يدخل الجنة، إلى غير ذلك من الأوصاف الكاملة التي لم تكن في غيره، وهو الظاهر يعني هو أول من ظهر في الإسلام، وأظهر الدين الحنيفي وأقامه حق الاستقامة، وأظهر الإيمان واوضحه، بعد الجهل، وأناره بعد الظلمة، وقيل الظاهر هو أول من ظهر اسمه في الأرض محمدا، وصار معناه هو الأول أحمد، والآخر محمد، فانظر سيدي تجد من عجائب اسمه وما ظهر منه من الغرائب في كتب الأمم المتقدمة، والله أعلم.

والباطن هو روحه وما بطن فيه من الأسرار العجيبة، والأنوار الساطعة، والأحوال السنية الباهرة المبينة، في فضل الروح وما اشتمل عليه من الأوصاف النبوية التي لم توجد في غيره، إلى غير ذلك

الله تعالى وذكره وسماه أحمد قبل خلق الأرواح وذكرهم، وبعد ذلك خلقت أرواح الأنبياء، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم أرواح الخلق جميعا، وهذا معنى الأول والآخر، يعني هو آخر الأنبياء أي أولهم في خلقة الأرواح، وآخرهم في خلقة البدن في العصر، وهو أول من تؤخر له الشفاعة يوم القيامة، وأول من يؤذن له في ذلك، وقيل الآخر هو روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أي آخر أرواح الأنبياء وهو آخرهم في القول والفعل، والأمر والنهي، إلى يوم القيامة...»

إلى ان يقول « فكن سيدي طاهر السر من الأدناس، والأغيار، تتطهر لك الروح بتجليات الحقائق الإيمانية، وتشاهد بذلك مشهدا عجيبا لا يعادله مشهد غيرك من المشاهد القلبية، لأن كل مشهد له سر غير سر المشهد الآخر، ويظهر لك في الكتاب إن شاء الله ما يبين لك مقام كل أحد، حتى تعرف أنت في أي مقام كنت، ويظهر لك غيرك في أي مقام، لأن هذا يفهمه من كان عارفا بالله، حافظا لحرمة الأوامر والنواهي، واقفا بباب مولاه، زاهدا في الدنيا وأهلها، راغبا في الله وما عنده، عالما بالكتاب والسنة، غافلا ساهيا عن اتباع شهواته، متنبها مستيقظا من غفلاته، وإلا فمثل قارئه كمثل الحمار يحمل أسفارا، وأما صاحب الروح له علامات تدل على روحانيته، أعني يكون له ذكر روحاني، يستغرق بدنه في العبادات، ويتخلق بالأحوال القلبية، وتصير له العبادات طبعا لا طبيعة، يعني الطبيعة للبشرية، والطبع للروحانية، ومفهوم الطبع هو أن يفنى الإنسان عن المحسوسات، ويغيب عن الكون بأسره، حتى عن وجود نفسه، هذا كله والمأمورات لم يغفل عنها، ولم يغب عليها، بل عند حضور وقتها يثبته الله لها، ويؤديها، وتصير له الطاعات طبعا، وتخف عنه، وتزول مشقتها عليه، فيجد هو لوجوب أدائها راحة ولذة وشوقا ومحبة، سواء كان غائبا أم حاضرا، الغالب

مما ذكر في الروح الأعظم، وهو روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي استمدت منه أرواح المحبين.

عنه[1] الاستغراق في تجليات الأفعال، والصفات، أي الصفات فقط، لأن مقام الروح مقام تجلي الصفات، ومقام القلب مقام تجلي الأفعال، وتجلي الصفات مقام فناء وغيبة وذهول، فصحح غيبك عن الكون بحضورك مع المكون، وشهودك لمنة نفسك في الأعمال، بتحقيق الأفضال منه تعالى، لأنك أنت في هذا المقام مستغرق الأوقات في بحر التجليات، وصاحب هذا الاستغراق يغلب عليه الشهود، أي شهود الحقائق، حتى يذوق في شهوده، لا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله شهودا ذوقيا لا شهودا اعتقاديا، يعلمه ويفهمه فقط، وصاحب هذا المقام، قريب من حضرة الله، بعيد من وسوسة الشيطان، إلا أنه بقيت فيه بقية يسيرة من النفس الأمارة، وطبيعتها مهما غفل الإنسان هنا سها عن الله قادته إلى مألوفاتها.

فكن سيدي مشتاقا لحضرة ربك ولا تبدلها بحظوظ نفسك الفانية، واجتهد في طلب الإعانة من مولاك، ليخرجك من ضيق الفناء عن نفسك، إلى سعة البقاء بربك، تستريح من نصب السحق والمحق، وتدخل راحة الصحو والمحو، لأن صاحب الفناء محصور في فنائه، مقهور لعوالمه، لا يدري في أي واد يذهب، فاخرج يا سيدي بإرادة سيدك عن الذهول، ولا تكن واقفا ببابه، ناظرا للفرح به، لأنه مقام غرق، ويخشى على صاحبه القطيعة»

الكلام في حقيقة الفناء:

وأردنا الكلام في حقيقة الفناء وسره وعوالمه، ومآل أمره، والله المستعان، وبه التوفيق، فافهم أيها السالك السائر إلى مالك الملوك، فإن للفناء ظنونا وشكوكا، وصاحبه مشكوك فيه، هل يفنى أويبقى، والفناء مشتق من اسمه لأنه معدوم، لا أصل له، وصاحب الفناء والذهول هو، وما ذهل عنه فناء، فصار الفناء لا حاجة به للسالك، والبقاء خير له، وإن كان ولابد للسالك من الفناء

1- كذا ولعله: عليه.

والمرور عليه، فلا ينبغي له المقام فيه، لأنه مقام دهشة، وهيبة، وذهول.

فبدّل يا أخي أوصافك اللئيمة المتلونة، بأوصاف مولاك الحميدة المتمكنة، أي اطلب الله أن ينقلك من صفة الفناء إلى صفة البقاء، وحيث تتمكن أوصافك بحقائق أوصافه، تصير تسمع به، وتبصر به، وتبطش به، وتمشي به، وتنطق به، وتتحرك به، وتسكن به، كما جاء في كلامه القدسي، «ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل»[1] الخ، ثم بعد يتبدل لك السمع فتسمع به دبيب النمل في ظلام الليل، على الصفا[2]، وتبصر من العرش إلى الفرش، وتبطش بقدرته إن أردت ما في الكون، وتمشي بإذنه إن قصدت موضعا في لحظة، وتنطق بإرادته ما شئت من علوم مكنونة، وهكذا إلى أن تصير خليفة الله في أرضه، وهذا كله من فضل لا إله إلا الله، والإكثار منها آناء الليل وأطراف النهار.

فعليك بكثرة الذكر والاجتهاد في لا إله إلا الله ترى لها من العجائب والغرائب ما لا يدخل تحت حصر، فافهم معنى ما ذكرناه من عجائب الفناء، وهو غريب، والفناء له ثلاثة وجوه فناء، وفناء الفناء، وفناء عن الفناء، فافن أيها الطالب بالفناء عن الفناء لتدخل عين الصحو، وتستريح من سجن المحو، والصحو هو عين الفناء، ويسمى عين اليقين عند أهل التحقيق، فعليك يا طالب البقاء بالخروج عن البقاء ليتجلى لك ربك بأسمائه الحسنى، وتتبدل هيبتك بالأنس، وتستريح من التلوين، ويستقيم سرك، لتحمل الأسرار الإلهية، وتطمئن نفسك، وتزكى، فحينئذ يخاطبها الحق بقوله ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾[3] الخ، وتجاوبه لبيك اللهم وسعديك، وتصير عند ذلك راضية بقضاء الله مرضية عند الله، وخلقه، وتكون من الحق قريبا، وفي دعائك مجابا، حتى إن أقسمت عليه في حاجة لأبرك بها في الحين، وأنت في هذا يهتز لاهتزازك العرش، وحملته ومن

1- رواه البخاري.
2- ط: الصفاء.
3- الفجر/ 27.

فيه، ويذكر لذكرك الكون ومن عليه، وتهيأ لك الجنة وتزين بحورها وولدانها، وتشتاق لك، وإياك أن يتجلى[1] لك شيء من هذا، وتظن أنه الغاية القصوى، وتقف عنده، فإن هذا كله فتن، وقواطع عن الحق، فلا تقف عند كون من الأكوان، سيدي، ولا تسرّ به، فإن المقصود أمامك، فلا تلتفت لشيء سواه، لأن الوقوف عند غيره أمن، والأمان هنا ممنوع، لأنه مكر، بدليل قوله تعالى ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2].

البحث في سر خفاء الخفاء:

وأردنا البحث في سر خفاء الخفاء المؤدي إلى بقاء البقاء، وهو سر يرد على قلب السالك بعد رجوعه من المحو إلى الصحو، كطلوع الفجر الخالص، فينظر حينئذ إلى سماء القلب وكواكبه وقمره التي كان يستدل بها في دجاء[3] الليل وظلامه، وإذ بها قد غربت وغارت في أقطار4 فضائها أي عوالم أفلاكها، ولم يظهر منها إلا القليل، فظن هذا أن النهار قد أقبل، وأدبر الليل بظلامه، فيا ليته من سعد إن دامت مطالعه، وأشرقت الشمس من بعد مغيبها، فغارت النجوم عند طلوع فجرها، وأنار ضياء الشمس بشعاع قبل طلوعها، فأظلم القمر وأخجل ضياؤه شعاع الشمس حتى كأن لا ضوء ولانور له، هذا معنى السر الأعظم الذي إذا دعِي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وهو سر الخفاء الموصل إلى البقاء بالله، وهذا مقام تجلي الصفات، وهو قريب من تجلي الذات، وهو مقام الأنس بالله تعالى، وهي مرتبة المقربين، وصارت حسنات الأبرار لهؤلاء سيآت، كما قال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[5].

1- ط: يتخلى.
2- الأعراف/ 99.
3- كذا في النسختين.
4- ط: أقصار.
5- أورده الألباني في الأحاديث الضعيفة.

فكن سيدي متأهباً[1] لهذا المقام العظيم، وصحح سرك بعدم رؤية الإخلاص في إخلاصه، ليزول الحجاب وتستريح[2] من الخطر، لقوله صلى الله عليه وسلم «والمخلصون على خطر»[3]، وأنت قد أشرفت على حقائق تجلي الذات، وهو تجلي غير التجليات المتقدم ذكرها، ولاحت لك بشائر الخلافة العظمى، وأردت الآن أن تلبس قفطانا، وهي خرقة يتوادها القوم بينهم، رضي الله عنهم، ولا يمكن له لبسها إلا على يد النبي صلى الله عليه وسلم، والشيخ رضي الله عنه، ويضرب طبل المشيخة على رأسه، ويسمع له صوت من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، ويكون في ذلك الصوت اسم صاحبه، يعني حروفا منقوشة في ذلك الصوت، فينتشر صيته، ويكون له ذكر في الأرض والسماء، أوّلا يذكر في الكون بالأعمال الصالحات، وثانيا يذكر عندهم بالخلافة عليهم، وهذا لم يذكر في الأرض إلا بعد ذكره في السماء، كما هو معروف من كلام الله عزوجل إلى جبريل عليه السلام في حق المحب، وإياك ثم إياك أن يخطر ببالك هذا وتدعيه من غير أن يظهر لك شواهده فتصير مدعيا لا ميتا ولا حيا، وإن يظهر لك منه شيء فانبذه وراء ظهرك، فإن ما قسم لك يلحقك من غير تتبع منك، وإن نظرت في ذلك أي وقفت معه قطعك وحرمك[4] وحجبك عن محبوبك...»

«...وعليك أيها الأخ بملازمة الآداب[5] الشرعية، والمحافظة على الأوقات المفروضة، ودوام ذكر الورد والرواتب المحتومة، وعليك بأن تلازم شروطا أربعة، تعينك على السير والسلوك، الشرط الأول أن تصحب شيخا عارفا بأحوالك ظاهرا وباطنا، منهضا لغفلتك غائبا كنت أو حاضرا، مشفقا عليك رحيما، محسنا كنت أو مسيئا، مرشدا راغبا فيك، ساهيا كنت أو مستيقظا،

1- متأهب في النسختين.
2- م: وتريح.
3- أورده البيهقي في الأحاديث الضعيفة.
4- في الأصل: أحرمك.
5- م : الأدبات.

والشرط الثاني أن تكون متبعا لأمره، وإن ظهر خطؤه، وأن تقوم بحقه غائبا كان أو حاضرا، وأن تحفظ حرمته ميتا كان أو حيا، والشرط الثالث تلزم نفسك السهر والاعتزال والجوع، والصمت، شيئا فشيئا بحسب الإمكان، والشرط الرابع أن تجلب الفكرة في ذكرك، والاعتبار في مصنوعات الله تعالى، لأن الذكر ينتج الفكر، والفكر ينتج الاعتبار، والاعتبار ينتج العلم، والعلم ينتج المعرفة، والمعرفة هي نجم المريدين، وقمر السائرين، وشمس[1] العارفين، وكل سائر يسلك بحسب مقامه، والشروط المتقدم ذكرها لابد أن يبني السالك أساس أحواله عليها، وإلا لم يستقم له حال، ولينظر أولا في حال الشيخ الذي يريد الأخذ عنه، هل هو سالِك مُسلِك، وراشد مُرشد، يصلح أن يسلك أم لا، وينظر في حال نفسه أيضا أفيه أهلية للسلوك قابل لذلك أم لا، ويدخل الصحبة بنية صادقة، وصدق خالص، وزهد بالغ، ويداوم على الجد والاجتهاد، ومكابدة النفس مع مخالفة الهوى، واتباع الأمر الشرعي، هكذا بالترقي حتى يسلك عن جميع المقامات، وآكد هذا الزهد في الدنيا لقوله صلى الله عليه وسلم «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2]. وقال شيخنا بن عزوز رضي الله عنه: «الدنيا حية إن قطع رأسها حلت للأكل، يعنون برأسها حبها، فمن زال عنه حبها لا تضره، ولا تحجبه، كما هو شأن الأكابر رضي الله عنهم، فانظر سيدي ما أعظم حب الدنيا في قلوب الراغبين، وما أحسنها في عيون الناظرين، وما أشهى زخرفها لمن طال أمله فيها»، يصدق على هذا قوله صلى الله عليه وسلم «الدنيا حلوة خضرة»[3].

ذم الدنيا ومدح الخارج عنها:

«...الدنيا حية مسمومة، وسمها مجموع كله في رأسها، ورأسها صغير الجرم، عظيم الخطر، فمن أزال رأسها أكل منها ما شاء، أو مسها، أو خالطها، ولا يضره

1- م: شمس بدون حرف العطف.
2- أورده الألباني وابن تيمية في الأحاديث الضعيفة.
3- رواه مسلم.

ذلك، وإن لم يزل رأسها لم يمكنه مسها ولا مخالطتها ولا أكلها، وإن اغتر وآلفها وأعجب بحسنها، وأدام النظر إليها واستباحها[1] وخالطها، ولم يلتفت إلى سمها، فلابد أن تصرعه بصرعة، ويتمكن منه سمها فيهلك من حيث لا يشعر، فيصير مخذولا ممقوتا، فكذلك الدنيا لا يفلح من اشتغل بها وجعلها دار قراره، وألهته عن طاعة ربه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما هو لله»[2]، أو كما قال، والملعون في الحقيقة هو اللاهي بها، المتشاغل عن القيام بحق مولاه، لأنها مخلوقة اختبر بها الله عباده، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم «الدنيا مطية الآخرة»[3]، فصار كل ما يوصل منها إلى الخير فهو خير، وبالعكس أي ما يوصل إلى الشر شر، فعليك أيها المريد بالخروج عن الدنيا حسا ومعنى، فأما الخروج حسا فهو نفض يدك منها، وترك التصرف فيها، وأما الخروج معنى فهو نزع حبها من القلب، ولا يتيسر نزع حبها في الغالب إلا بترك مخالطتها، أعني شيئا فشيئا حتى يظهر له اختيار الله في تلك النقلة، والخروج، ويجد بعد التعب راحة ولذة في القلب...»

«...واعتبر من أقرانك، وجيرانك أقاموا فيها كما أقمت، وشهدوا[4] ما شهدت ثم رحلوا منها وأنت تنظر، فلابد أن تسير حيث ساروا، وعن قريب ترحل حيث رحلوا، فالحذر الحذر من الدنيا وزينتها، لأنها غرارة مكارة، لا يدوم سرورها، ولا تنقطع شرورها، فرحها حزن، وزيادتها نقص، فالمغرور من آمل فيها، واتخذها قرارا، والعاقل من زهد فيها، ورغب في الآخرة، ولا تنظر أيها الموفق في غرة ظاهرها، وتعرض عن عبرة باطنها، بل انظر لعاقبة أمرها يهن عليك ما تكدر منها، ولم تطمئن لما صفا منها لأنها هي الحاجبة لك عن الحضرة الإلهية، وانظر قوله

1- م: واستبابحها.
2- أخرجه الترمذي والدارمي وابن ماجة.
3- حديث غير صحيح.
4- م: وشاهد.

صلى الله عليه وسلم «الدنيا حلوة خضرة»[1]، أي في عين الواقف مع حظوظ نفسه، أي فيها حيث ترك الاعتباروالنظر إلى عاقبتها، وقوله صلى الله عليه وسلم «الدنيا جيفة قذرة»2، أي في بصائر أرباب القلوب الطالبين الخلاص من شرها، ومن شر نفوسهم، نظروها ظاهرا وباطنا، فوجدوها دار بلاء ومحن، ومعدن أكداروهوان، فانكشفت لهم حقيقتها فظهرلهم قبحها وخستها، فاستحقروها وزهدوا فيها، واشتغلوا بعبادة مولاهم، وأخلصوا العمل لله تعالى، فهذا مقام الأبرار الذين قال الله في حقهم ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾[3]، لأن الأبرار يتنعمون بعبادة ربهم في الدنيا، ويرجون الجزاء يوم القيامة، لأنهم لم يزالوا في حظوظ النفس، إلا أنهم في المجاهدة والمخالفة، والغالب عليهم الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وبذلك نالوا مقام الأبرار، وأما المقربون فهم أناس مقبولون عند الله وعند رسوله، والخلق جميعا يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة»4، لأنهم زهدوا في الدنيا والآخرة، والمقامات، والكرامات، والوصال، والكمال، حتى عن نفوسهم، وانفردوا بالباقي الدائم الذي لا آخر له، ولا أولية له، هؤلاء الواحد منهم يستغيث به الكون جميعا، وعند ذكرهم تنزل الرحمة، وهي الأمطار والأرزاق، الخ، ومن هؤلاء تكون الغوثية الكبرى، ويمد منها للخلق أسرار[5] ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والغوث لا يكون إلا من نسله صلى الله عليه وسلم، وهو الخليفة الأكبر، والملك الأعظم، لقوله صلى الله عليه وسلم «ليس منا من لم يولد مرتين»[6]، وهذا الحديث وجدته في كتب الشيخ بن

1- رواه مسلم.
2- لم نعثرعليه في أي من كتب الحديث.
3- الانفطار/ 13.
4- أخرجه ابن ماجة وصححه الألباني.
5- ط: أسرارا.
6- حديث ضعيف

عزوز رضي الله عنه، يعني كتب لي كتابا وقال لي فيه صرت ولدا على الحقيقة، لقوله صلى الله عليه وسلم «ليس منا من لم يولد مرتين»[1]، فأردت أن أتكلم[2] في بعض ولادة القلب الموروثة بين القوم رضي الله عنهم بالفتوحات والكشف الرباني، والعيان،الخ، وولادة الصلب الموروثة بالإرث الحسي، وكلاهما حسن، والحمد لله على ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مرتين، ولادة حسية وهي ولادة[3] الصلب، وتنوع منها الشرف الحسي، وولادة معنوية وهي ولادة القلب، وتنوعت منها أحوال سنية، وولد مرتين، ولادة حسية وهو خروجه من بطن أمه إلى الدنيا لجريان الحكمة عن يده حسا، وولادة معنوية من جبريل عليه السلام لظهور البشارات الظاهرة، والباطنة منه، لأهل الحقائق الربانية، فأحببت أن أذكر شيئا من بعض سر الولادة وهو يأتي إن شاء الله، والله الموفق للصواب لأنه صلى الله عليه وسلم4 ولد من صلبه أولا، وولد من قلبه ثانيا، فصار نسله صلى الله عليه وسلم الظاهر والباطن قائما إلى يوم القيامة، فالظاهر عندنا الآن سلسلة الشرف المنسوبة لأولاد الصلب كفاطمة رضي الله عنها والحسن والحسين، الخ، وتفرعت منهم فروع للخلافة كما هو مذكور، والولادة الثانية باطنية لا يعلمها إلا الله ورسوله وأهلها، فصارت5 الطائفة التي ذكرها صلى الله عليه وسلم من هذه الولادة أي الثانية، والله أعلم، وقيل الخلافة امتدت من علي أو من أولاده أي أولاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمشهور المتفق عليه من فاطمة وأولادها، وحقيقة ذلك راجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم...»

1- حديث ضعيف

2- ط: نتكلم.

3- ط: أولاد.

4- م: - لأنه صلى الله عليه وسلم.

5- م: صارت.

الكلام في العقل:

وأردنا الكلام بعد هذا في العقل وأعوانه، والشيطان وأعوانه، اعلم أن الله تعالى لما أن خلق الإنسان بإيجاد حكمته، ركب فيه العقل والسمع والبصر، فجعل السمع يقود له المسموعات، والبصر يقود له المبصرات، بشيء وقر في الصدر معنى، ثم بعد ذلك خلق الله الشيطان أي أخرجه من الجنة، وأنزله إلى الأرض، وطرده1 من رحمته، ولعنه إلى يوم الدين، وقال في ذلك ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾2 إلى قوله ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾3، وقال الله في ذلك ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾4، أي عبادي المخلصين ليس لك على قلوبهم وإخلاصهم سبيل، فأنظره الله لذلك، ومكنه من بني آدم، لا يفارق منهم أحدا طرفة عين إلى يوم القيامة، سواء كان مطيعا أو عاصيا، فأقام الشيطان وأعوانه، واستولى على قلوب الغافلين المتبعين لهوى نفوسهم، وأخذ حظه منهم بحسب إمكانه من الخلق، وصار يأتي كل واحد من الباب الذي هو فيه، ويحاجه بالكتاب والسنة، ويقول له قال الله كذا أو قال النبي كذا، أو يحاكيه في ذلك بما يوافق مراده وهواه، والأمر بخلاف ذلك، أما المبتدي فيأتيه من باب الرجاء، ويقول له لا تخف من عقابه، وسوء عذابه، لأنك أنت عبد ضعيف، لا تقدر على شيء، والله رءوف رحيم، قادر عليك، وهو محركك ومسكنك، ورافعك وخافضك، الخ، وأنت لا تكلف نفسك ما لا تطيق، امتثالا لقول ربك ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[5]، فإن أصغى لهذا القول منه تكاسل على الطاعات، وفتر عن فعل الخيرات، وغفل عن ذكر الأوراد، وتمادي في الشتم والغيبة في أعراض العباد، ثم أتاه من باب آخر، وقال له يسعك الوقت في قضاء حوائجك بل أخر

1- ط: أطرده.
2- الحجر/ 36.
3- الحجر/ 40.
4- الحجر/ 42.
5- البقرة/ 286.

وقت الصلاة إلى وقت آخر، وحيث تقضي مآربك اقض صلاتك، واذكر وردك، الخ، حتى إن أصغى له وحضر وقت القضاء، وأراد الإنسان أن يقضي صلاته أتاه من باب الخوف، وضيق عليه المسالك، وشدد عليه وقال له الله شديد العقاب، وأنت ضيعت حقوقه في أوقاتها وأنت اليوم أردت أن تقضيها، وأي وقت أنت قاض؟ وإن قمت لقضائها ضيعت حقوق نفسك وأهلك، والقضاء كثير عليك فاتركه، واشتغل بدنياك أولى لك، وأصرف أمرك له كما كان عليه غيرك من الخلق، إن شاء عذبك، وإن شاء رحمك، ولا تدري من هو المقبول، يعني العاصي والمطيع، والله جائز له أن يرحم العاصي، ويعذب المطيع، وأنت لعل عمرك يطول، وترجع إلى التوبة، وتتوب إليه، ويغفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، الخ، وإن أصغى لهذا صمت أذنه، وعمت بصيرته، وترك الطاعات كلها، ووقع في الزندقة المحض.

وأما المتوسط فيأتيه من باب النصيحة، ويدخل عليه من باب الخوف، ويقول له أخوف ما أخاف عليك من العجب والرياء والسمعة، الخ، وأنت رجل مقبول محبوب عند الله، وعند خلقه، واللائق في حقك أن تخفي أعمالك، وتخمل نفسك، وتفعل المباحات المسقطة لك من أعين الناس، كما كان يفعله الصالح قبله، ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم «ويل لمن أشارت له الأصابع ولو بخير»[1]، وقوله تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم «العمل لأجل الناس شرك وتركه لأجلهم رياء»[3]، وأنت الآن لم تزل بعيدا من الإخلاص لا تقدر أن تفك نفسك من هاتين الخصلتين، بل اترك عنك العمل لأجلهم...»

1- لم نعثر عليه في أي من كتب الحديث.
2- الكهف/ 110.
3- لم نعثر عليه في أي من كتب الحديث.

حتى يقول«... حتى إن فعل شيئا من المكروه أتاه، وقال له أنت رجل موحد، ومتكل على مولاك، ومفوض أمرك إليه، لا تدبر معه فيما يقضيه عليك خيرا كان أو شرا، وأنت لا حركة لك ولا سكون بل هو محركك ومسكنك، ألم تسمع قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1]، وأنت توكلت عليه، وصار هو حسبك في كل الأمور، لا يهمك شيء غير حضور ربك لا غير، يكفيك ما أهمك فإن أصغى لهذا القول وقع في الحرام المحض...»

وأما الخواص فيأتيهم بواسطة النفس، وهو من خارج القلب ولا يقدر أن يدخل في قلب المخلص السالك، بل يأتيه من جهة النفس لا غير، ويكلم الشيطان النفس، ويقول لها أنت نفس زكية[2] راضية مرضية، سالكة خالصة، وسلكتِ عن الكائنات، ولم يبق لك إلا الله فقط، وصرتِ أنتِ هو وهو أنتِ، وتتصرفين في الكون بإرادته ما شئت، وكيف شئت، والكون صار بأسره في يدكِ، ولا يفوتكِ منه شيء...»

«...العقل له جنود، وهو الأمير فيهم، ووزيره العلم، وخليفته العمل، ومركبه التقوى، وحاجبه أي حافظه وحارسه الإخلاص، ودليله المعرفة، أي الذي يستدل به في ظلمة الفيافي، وعسكره الحياء، وجنده الحضور، وخادمه الاجتهاد، وسلاحه الطهارة، وقوته لذة الإيمان، وشرابه المحبة، ودرعه المخالفة، وحصنه المحتوي عليه الذكر، وهو لآ إله إلا الله، ورباطه الحقيقة، يعني الأبراج التي في مناكب الحصن وهي[3] الجهات الأربع، الخ، فقام أمير الجيش وهو العقل، ونادى بأعلى صوته يا خيل الله اركبي، فركب الأمير، وركب الوزير، وهو العلم، وركب الخليفة، وهو العمل، وأقبل الأمير بوجهه على الوزير والخليفة، وقال لهما لا أخذلكما الله، أنتما اليوم أمراء الجيش، إن استقمتما أنتما استقام

1- الطلاق/ 3.
2- م: زاكية.
3- م: وهم.

جندكما، وهزمتم العدو، وإلا فتهلكا ويهلك الجيش، ونهلك، أنا[1]، قم أنت أيها الوزير وسر أمام الجيش، والخليفة خلفك، ويتبعكم الجند وأعوانه، وأنا ناظركم، والذي يشكل عليكم ندبره لكم في الحين، لأني أنا أعقل لكما الأمر كله، وأنتم قوموا بالحرب ومجاهداته، وأنا أقوم لكم بمعقولات ذلك جميعا، وإن صح مركبي وهو التقى صح حربكما، أنتما، أيها العلم والعمل، واستعينا في حربكما بالإخلاص، ولابد لكما من الدليل يمشي أمامكما، وهو المعرفة، ليمهد لكما الطريق، ويوضح لكما المعالم، وتكونا على بصيرة في حربكما، واستعينا بوزير العسكر وهو الحياء، لأن جنده عظيم، والأعظم منه جند الحضور، فدبر العقل أمر الجيش، وأصلح شأنهم، وقال لهم عليكم بالحصن ادخلوه من بابه، وبابه لا إله إلا الله، ووسط الحصن، الخ، الحقيقة الإلهية، أي معنى لا إله إلا الله وإن دخلتم الحصن اغلقوا الباب عليكم، وهو نفي ما سوى الله تعالى وإثبات وحدانيته، وإن دخلتم حصنكم انهضوا أمير الصدر وهو القلب، وأيقظوه من غفلته، ليستحضر مذكوره، وعلى قدر عملكم فيه يضيء لكم ظلامه، وتستنير لكم الطريق للحرب فيه، واجعلوا حراسا على الثغور الأربعة، وهي السمع والبصر واللسان والشم، وآكدها[2] البصر، لأنه هو مرمى الشيطان، اجعلوا على البصر جند الحياء، وهو أعظم الجنود، وعلى السمع الحاجب وهو الإخلاص، وعلى النطق أي اللسان الحضور، وعلى الشم جند المخالفة، وأنا أحرس لكم أمير البيت، وهو القلب، لئلا يغفل عن ذكر المحبوب، فتسترقه النفس، وتظلمه بشهواتها، ودونكم، والنفس فضيقوا عليها مسالكها بجند من المخالفة، ولا تفارقوها بالمخالفة طرفة عين، والنفس هي واسطة الشيطان، وأسرار الباطن كله تأويها إليه، وهو يدبر على النفس من داخل البيت وخارجها...»

1- غير واضحة في ط، م لعله استعمل ضمير المفرد ليؤكد ضمير الجمع.

2- م: وآكدهم.

الكلام في الاغترار:

ونرجع للكلام هنا في الاغترار والبحث فيه باختصار، والله المستعان، نعم أيها المحب فلا تغتر في زعمك أنك محب لله ولرسوله، وتدعي المحبة من غير أن تصادف محلها، وتحدث نفسك بصدق الوعد معهم، والثقة برجائهم، وأنت بخلاف ذلك، يصدر منك هذا وأنت منكب على دنياك، متبع لهواك، منتهك لحرمة مولاك، ضامر على أسرار السوء بسرك، كيف يكون لك حال معهم وأنت منعكف على أفعال الشر، وتزعم أنك على خير وهدى من الله؟ ألم تسمع قوله تعالى على لسان نبيه حيث قال ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[1]، فانظر سيدي إن كانت لك فيهم صحبة صادقة، وصلاح فالح، هل أنت متبع لأمرهم أم لا؟ نعم إن كنت متبعا لأمرهم حقا، فانظر وميز أمرك حقيقة، إن وجدت لنفسك ميلا لغيرهم، واتباعا لحظوظ نفسك، وإطلاق الجوارح في المنهي عنه، والادعاء باق[2] فيك، فأنت الكاذب في صدقك، المفتري على ربك، المحجوب بادعائك، وإن نظرت في حالك وميزت أمورك ووجدت الغالب في حقك اتباع الأمر والنهي، ونظرت في نفسك ثانيا ووجدتها مملوكة لك، منقادة لميزان الشرع، مع أنك مجاهد فيها، ومخالف لها في غالب أمرك، مداوما على الذكر والطاعات، مخلصا لعبادتك في الله، حاضرا معه، تاركا لغيره، فأنت الصادق في ادعائك حقا، والمبشر بحسن العاقبة، ويرجى لك الفضل والخير أجمله[3] بمنه وكرمه إن شاء الله، وعليك بالتأني في أمور الطاعات، ولا تتوغل في الإكثار منها، بل خذ منها الأوسط، قال صلى الله عليه وسلم «خير الأمور أوسطها»[4]، ولا تشدد على نفسك في الدين، فيغلبك الدين، لقوله صلى الله عليه وسلم «إن الدين يسر،

1- آل عمران/31.

2- ط، م: باقيا.

3- ط: + أجمله.

4- أخرجه ابن جرير في تفسيره.

ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[1]، فقوله[2] إن الدين يسر أي الإيمان ميسر لمن دخله بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا يعسر عنه الدين بعد دخوله في الإيمان، لقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3]، ظاهر الآية يدل على أن الدين لا يعسر على المؤمن حيث أسلم أمره لله، وانقاد للإيمان، ودخله ممتثلا لأمر الله ورسوله، يعني من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لن يغلبه الدين بعد ذلك، لقوله صلى الله عليه وسلم «ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه»[4]

«...فاذكر سيدي على العموم، مع لوازم شروطه وأدبه، فانظر الرحمانية تجد كل ذلك مفصلا على حد السواء، وهكذا يكون حالك في كل مقام، حتى تسلك عن جميع المقامات، وينتهي حالك إلى غاية المقصود، وحصول المراد، وتزكي نفسك وتطمئن بالحق، وهكذا حجب الأسرار لا يخرقها إلا الاسم هو هو هو، وكذلك مقام الوصال لا يخرق حجبه إلا اسم حق حق حق، وكذلك مقام الكمال لا يخرق حجبه إلا اسم حي قيوم، وكذلك حجب مقام القطبانية لا يخرقها إلا اسم القهار، وهو حجب نور الذات العلية، وهنا فنيت[5] العبارات، وذهبت الإشارات، وفنى الرسم، وبقي الاسم، وهكذا تدريج المقامات في الترقي شيئا فشيئا حتى يسلك عن جميعها، والحجب التي هي بين العبد وربه سبعون حجابا، وقيل سبعون ألفا، لقوله صلى الله عليه وسلم «بين العبد وربه سبعون حجابا أو سبعون ألف حجاب لو كشفها السالك لحرقت سبحات وجهه ما

1- أخرجه البخاري.
2- م: فقولوا.
3- الحج/ 78.
4- رواه البخاري.
5- ط، م: فنت.

انتهى إليه بصره»[1] أو كما قال، والحجب في الحقيقة حجب الذنب، وهي التي حجبت[2] العبد عن ربه، وأما الله فمنزه عن ذلك لا يحجبه شيء عن شيء، بل هو موجود قبل كل شيء، وموجود في كل شيء، وموجود بعد كل شيء، وهو الظاهر في كل شيء، وهو الباطن في كل شيء، وهو الأول في كل شيء، وهو الآخر في كل شيء، لا يحجبه شيء عن شيء، وهو القاهر فوق كل شيء...»

الكلام في سالك مقامات التدريج:

«...اعلم وفقك الله أن السالك هو المجتهد في العبادات بأنواع المجاهدات، تارة مع نفسه بحظه، وتارة مع ربه بتركه لذلك، تارة هكذا وتارة هكذا، إلى أن يقضي الله أمرا مفعولا، والسالك في سلوكه له حضرات عديدة، يستعد من كل حضرة هو داخلها إلى حضرة أعلا منها، يعني عند ابتداء أمره بالعبادات، والتهيئ لحسن معاملة الباطن، يحصل له الفكر في باطنه، والاعتبار في مصنوعات الله تعالى، وهذا أول حضور حضره مع الحق بعقله في عبادته، لقوله تعالى ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[3]، لأنه نظر الأشياء ثم بعد نظره تيقن بالدليل أنها مصنوعة لله عز وجل، ثم بعد تيقنه علم أنها دالة على صانعها وخالقها ومالكها، وهذه الحضرة يسميها أرباب المكنة والتمكين علم اليقين، يشهد لذلك قوله تعالى ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾[4]، حتى إن حصل العلم واليقين في القلب يتقوى إيمان الباطن في الصدور، ويشاهد في سره مشاهد نورانية، وتطرقه في تلك المشاهدات حضرات مع الحق، يعني يرى الخلق في الحق، عكس ما كان عليه أولا، يعني يستدل بالحق على الخلق، فيرى هنا الأفعال كلها صادرة من الحق، كما كان يراها أولا صدرت من الخلق، وهذا يستدل بالحق على

1- لم نعثر عليه في أي من كتب الحديث.
2- م: احجبت.
3- الغاشية/ 17.
4- التكاثر/ 5.

الخلق، فيرى الحق في الخلق، والخلق في الحق، وهذه تسمى حضرة الأفعال، وهذا مقام عين اليقين لقوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[1]، فيتحقق الأمور كلها من الله إلى الله، لا فاعل على الحقيقة إلا الله، فيغمره وجود حضرات الأفعال، ويهوي به إلى تمكن الحقائق الإلهية، وهنا تفنى صفاته البشرية أي الذميمة في صفة الحق القديمة الحميدة، ويعاين حق ذلك بالكشف والعيان، ويشاهد مقام الإسلام كشفا، ومقام الإيمان حالا، ومقام الإحسان عيانا، فتصير عبادته إسلاما، وإيمانا وإحسانا، فيعبر عن مقام الإسلام بالدليل وهو علم اليقين، وعن مقام الإيمان بنور الأسماء والصفات، وهو عين اليقين، وعن مقام الإحسان بنور تجليات الذات وهو حق اليقين، ومجمع هذا الخير في هذه الثلاثة مقامات، فمقام علم اليقين للعوام، ومقام عين اليقين للخواص، ومقام حق اليقين لخواص الخواص...»

العيون:

ونرجع للعيون المذكورة وهي عين حضرته، وسر حقائقه فبعلم اليقين يتوصل إلى عين اليقين، وكلهم عيون، غير أن كل عين تبصر بقدر نورها ويقينها كما ذكرناه، وعين اليقين هي العين الكاملة المزيلة للتلبسات كلها، والظنون القادحة في الباطن، بحيث لم يبق للحق إشكال في السر ولا تلبس، يشهد لذلك قول الأعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جاءه وطلب معه الكلام في شأن المعجزتين المخلوقتين من قبل خلق آدم عليه السلام، وشاهد منه ذلك، وقال له: أمدد يدك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك محمد عبده ورسوله صلى الله عليك وسلم لا شك بعد عيان، ولا كفر بعد إيمان، فسر المصطفى صلى الله عليه وسلم بإسلامه، وقال فقهوا الأعرابي.

1- التكاثر/ 7.

فانظر سيدي لمعنى هذا السر العظيم ما أجل مقامه، وما أعظم قدره عند الذائقين طعمه، العارفين أحكامه المحققين نزوله، وهذا معنى حضرات السالك[1] في سيره، لأن كل مقام له حضرة، وكل حضرة لها لذة، وكل لذة لها فناء، وكل فناء له بقاء، وكل بقاء له دوام، ودوام حضرة تجليات الذات أعلى الحضرات، وأرفع الدرجات، وأعظم القربات، وهذا هو مقام حق اليقين، لقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾[2]، وهو أرفع مقامات السالكين، وسدرة انتهائهم، أي منتهى أمرهم، والمقامات تختلف باختلاف المراتب والأحوال، كل له مقام، وكل مقام له مقال، فمنهم من يكون محجوبا، ومنهم من يكون مكاشفا، ومنهم من يكون محققا، ومنهم من يزول عليه الحجاب، فيكون مكاشفا ومشاهدا ومحققا، يعني فالمكاشف هو الذي انكشفت له صعائب نفسه، واشتغل بتنقية عيوبه، والمشاهد هو الذي شاهد الحق حقا، والباطل باطلا، والمحقق هو الذي تفتقت له حجب الأسرار، وتمكن سره من الحقائق المكنونة في علم غيبه، وبقي بالحق روحانيا مع الروحانيين...»

أهل المقامات:

وأما أهل المقامات فتختلف عباراتهم وإشاراتهم باختلاف الأحوال، كما ذكر كل منهم بحسب شربه، لقوله تعالى ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[3]، فمنهم من يصل إلى العبارة ولا يفهم لها معنى، وإن عبر عن ذلك حجب عن ما كان يشهده، ومنهم من يصل إلى العبارة ويفهم معنى ذلك، ولا يقدر أن يعبر عنها باللسان، وإن عبر عنها لم يصادف محلها، ويذهب عنه الفهم فيها، ورجع على ما كان عليه أولا، ومنهم من يصل إلى العبارة ويفهم معناها، ويعبر عنها باللسان، وهذا أوصل العبارة بالله وفهمها عن الله، وعبرها لله فصارت إشارته بالله، وفي الله، وعن

1- م: السالكين.
2- الحاقة/ 51.
3- البقرة/ 60.

الله، وإلى الله، فهذا مأذون في عبارته، فله أن يعبر عن كل المقامات بحيث لا يحجبه مقام عن مقام، ولا عبارة عن عبارة، ولا إشارة عن إشارة، وغيره مما ذكر لم يؤذن له في التعبير، وإن عبروا حجبوا، وإن أشاروا اقتصروا، وإن فهموا هاموا، فالأولى لهؤلاء التسليم لما يرد عليهم، حتى يحصل لهم الإذن المذكور، وإلا رجعوا ناكسين على أعقابهم، كما تقدم، لأن السالك المجتهد مهما ينزل مقاما أو يرد عليه وارد[1] من الحق إلا ويظن أنه وصل إلى حد الغاية، والأمر بخلاف ذلك، وإنما الغاية الوصول إلى المقصود، وعلامة ذلك الخروج عن ما سوى الله تعالى، وعدم الانتظار لحظوظ النفس معنى، بحيث لم تبق له لذة للوصول، ولا شوق للمقامات، حتى لم يعده لنفسه مقاما أبدا، وهذا يشهده حالا وذوقا، أي خلقا وخلقا لا علنا واعتقادا فقط...»

«...والصوفي منفرد بالحق، متصل بصفاته، منفصل عن غيره، والاتصال هو الاتصاف بالأوصاف المحمودة، والانفصال عن الخلق هو الخروج عنهم، بحيث لم يبق في باطن السالك شيء غير الحق، وعندهم الزهد في الدنيا هو أول منزلة في الترقي، والزهد في الآخرة هو ثان منزلة، والزهد فيما سوى الله هو ثالث منزلة، والخروج عن رؤية الزهد في ذلك هو مقام الكمال للعارف بالله حق[2] معرفته، والكامل لابد له من ثلاثة مراتب، يتم له بذلك كماله، المرتبة الأولى هي الزهد في رؤية الكمال، والثانية هي دوام الإمداد عليه من تجليات الحق، من غير مهلة يتوقف المدد فيها، والثالثة يراها محفوظة عليه برعاية الحق له، ومراقبة قربه سرا بإدمان الحق له، فهذه صفة الكامل لا يشغله شأن عن شأن، كما تقدم حكمه في الآية، يعني ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3] لأن الولي حيث يكمل حاله، ويتصف بصفات الحق، يصير الحق شأنه، بحيث لا يشغله شأن عن شأن، أي

1- ط، م: واردا.
2- ط: - حق.
3- الرحمن/ 29.

حق عن حق آخر، بل أبد الأبدين في تجليات الحق في هذه الدار، وفي تلك الدار، لا تنقطع عنه التجليات أبدا، وهذا التجلي العظيم لا يكون إلا للكامل، وهو أرفع التجليات، وأمكنهم[1] لأن صاحب التجلي غير هذا التجلي ممنوع من تجلي الذات، وصاحبه تارة يتجلى له الحق بحسب إخلاصه فيه، وتارة يغيبه عنه بحسب رعونة[2] بشريته، وهذا في كل مقام بحسب تلوينات الطبائع.

وأما مقام الكمال المذكور ليس فيه تلك التارات، وإنما هو تجليات محض ذاته، فافهم ولا تعتقد أن ذات الله سبحانه تدرك بالعقول أو بالقياس، أو بالبصائر لقوله تعالى ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[3] أي لا تحيط به الأبصار، ولا يدركه عقل، ولا نقل، ، ولا نظر، وإنما ذاته لا تشبه الذوات، وصفاته لا تشبه الصفات، غير أن بعض صفاته يتصف به الكامل عند كمال حاله، أي الإيمان وقربه إلى الله بالنوافل، كما دل عليه قوله تعالى على لسان نبيه «ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده الذي[4] يبطش بها»[5] الخ، وهذا معنى اتصاف صفات العبد بصفات الحق، ولا يرى العبد من تلك الأوصاف إلا تلك الصفات المحمودة، مؤثرة فيه قدرة صالحة من غير أن يكيف لها معنى، ولا يحيط بها سرا، ولا يعبر عنها قولا، ولا يخوض فيها عقلا، وهذا معنى صفاته لا تشبه الصفات...»

1- كذا في ط، م، ولعله: أمكنها.
2- ط، م: روعنة.
3- الأنعام/ 103.
4- كذا في ط، م، ولعله: التي
5- أخرجه البخاري وابن حجر.

سكرات الموت:

ونرجع للكلام المتقدم ذكره في شأن سكرات الموت، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن للموت سكرات»، أي الموت[1] يذوقه كل واحد، مؤمن وكافر، عاص ومطيع، وكل ما يطلق عليه ذو نفس من خلق الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]، غير أن المؤمن الكامل يذوق فناء الموت، ولا تعدو عنه في ذلك أهوال، لأن الله تعالى تولى سياسته، كما تقدم في أمر الدنيا والآخرة، وتولى منه كل أحواله، حتى عند سكرات الموت، لأنه مات قبل أن يموت، لقوله صلى الله عليه وسلم «موتوا قبل أن تموتوا»[3]، وحيث مات حيا، ولا بعد الحياة موت، لأرباب القلوب، والموت لابد له من سكرات، وهم ماتوا وعالجوا سكرات الموت في دنياهم بالمخالفات، ولم تكن لهم سكرات أخرى غير كأس الفناء المتقدم ذكرها، لقوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[4]، وهؤلاء ذاقوا، وماتوا، وفنوا، وبعثوا، وحوسبوا، ودخلوا الجنة، ونظروا إلى وجه الله الكريم، ودخلوا في وعد الله المحتم عليهم، وهو قوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾[5] الآية، ولم يبق لهم من وعد ربهم شيئ إلا أدوه كما نص عنه في كتابه العزيز، وأتت به الشريعة، وكيف تكون لهؤلاء شدة وسكرات؟ لأنهم استمروا على شدة سكرات الموت أولا، فلم تؤثر فيهم ثانيا، لأن موت النفس في المجاهدات والمكابدات والمخالفات طول العمر أشد على المريدين، من موتها الحقيقي مرة واحدة، ويتمنون عند مجاهدة نفوسهم هذه الموتة، ولا يجدونها لأن لهم فيها راحة عظيمة من خطر النفوس...»

1- ط، م: للموت.
2- العنكبوت/ 57.
3- حديث ضعيف
4- الرحمن/ 26.
5- طه/ 55.

التجليات:

ونرجع للكلام في معنى التجليات، يعني كما جازت رؤيته في الآخرة، جازت في الدنيا، وأرباب القلوب تختلف مشاهدتهم في تجليات الحق، وعلى قدر الإخلاص تكون المشاهدة، فمنهم من يشاهد الخلق أولا، كما تقدم، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق، ومنهم من يشاهد الخلق في الحق، ومنهم من يشاهد الحق في الحق، وهذا مقام كامل لا يفهم معناه إلا أهله، المتصفون به، أما المبتدي الذي يشهد الخلق أولا فيتجلى له الله باسمه الجبار، فتنجبر[1] أحواله بالاعتبارات في خلق الله، والتفكر فيما مضى من عمره، وما هو آت فيدخل عليه تجلي اسمه المنان، فيمنّ عليه بالستر على أفعاله القبيحة، ويشهد المنة لله تعالى في ذلك حيث ستر منه القبيح، وأظهر منه الجميل مع رؤية التقصير في نفسه على أي حالة، فيظهر له بنور ذلك الاسم، وما هو مستمر عليه من الأوراد والرواتب معايب نفسه، ولطف مولاه به فيعرف عند ذلك قيمة نفسه، فيسعى في اتهامها، ويعرف لطف ربه به، فيصرف همته له بحسب إمكانه في ذلك، ويرجو النصر والإعانة منه، على ما هو عليه من مجاهدة النفس، ثم بعد ذلك يتجلى له باسمه ذو القوة المتين، فيشهد اختيار الله غالبا لاختياره، فيتقوى بذلك يقين القلب، ويتهرج إيمانه، ويذوق شدة قوة قدرة الله وإرادته، فعند ذلك يحصل له معرفة صفة الأفعال، فينعدم حينئذ عنده فعله، وفعل غيره، وينسب الفعل كله لله، وصاحب هذا الوصف قد أشرف عن مقام التوسط، وهو مقام الأبرار، وصاحب هذا المقام يتجلى له الله سبحانه باسمه المعين، وباسمه اللطيف، وباسمه القدير، فيكون ملطوفا به، تحت ظل نور تجلياتها أي الأسماء، ومحفوظا بكلئها، مجذوبا بنفحاتها، مصطلما بقدرة القادر، مستعينا بإرادة ربه على إرادة نفسه، طالبا النصر من الله على موت شهوات نفسه. ومعنى هذه

1- ط: فتخير.

الأسماء لا يتصور منها إلا اللطف بأحوال هذا المريد من مكائد النفس، والهوى والشيطان، والاستعانة بالله على ما هو عليه بصدده...»

فتح[1] البصيرة على ثلاثة أقسام، القسم الأول انكشاف معائب النفس، وظهور الحق حقا[2]، والباطل باطلا[3]، والقسم الثاني الفناء عما سوى الله، ومحو الصفات البشرية في صفة الحق، وفناء عن الفنا، والقسم الثالث وهو البقاء بالله تعالى عيانا، وهو مقام الصحو، والصحو لا يكون إلا لمن فتح الله عليه رؤية تجلي الذات بكمال صفاء بصيرته، وهذا فتح البصيرة الحقيقية[4]، وهذا معنى قوله رضي الله عنه: إلى فتح البصيرة، وهذا إن بلغ هذه الفتوحات5 يفعل ما قد ذكر، لأنه من أهل الحضرة لا تضره الأشياء، لأن الأشياء كلها صارت طوع يديه وتخدمه، وهذا القسم الثالث في فتح البصيرة أعلى القسمين المتقدم ذكرهما، والقسم الثالث صاحبه سالك ومتدل، لأنه[6] مر على المقامات في سلوكه صاعدا وراقيا بالجد والاجتهاد، كما تقدم، إلى أن وصل نهاية السلوك، عند ذلك لم يرجع لتدليه، لأنه تدلى في سيره وسلوكه، وحيث وصل إلى المقصود انتهى سلوكه، وبقي في مدد التجليات راقيا، إلى[7] أن تدليه في الأمر والنهي باق على حاله الأول، بل ازداد في ذلك على أول ابتدائه بخفة المشاق في عبادته، بحيث لم تفارقه راحة القلب طرفة عين في تلك الحالة، وأما المتدلي هو المجذوب كما تقدم الذكر فيه، يعني بدايته نهاية السالك، وهذا يليق[8] به التدلي عند انتهاء

1- م: وفتح.
2- م: حق.
3- م: باطل.
4- م: الحقيقة.
5- م: الفتحات.
6- م: - لأنه + أما.
7- كذا في ط، م. ولعله: إلا.
8- م: يلق.

المقصود، لأنه لم يعرف الطريق ولا الدليل، لأنه في تدليه يستدل بالمؤثر على الأثر، كما أن السالك يستدل في سلوكه بالأثر على المؤثر، ولذلك السالك حيث ينتهي سلوكه لم يرجع إلى الأثر سوى أثر المشروعات، كما قلنا، لأنه استدل به[1] على المؤثر، ولا حاجة له به[2] عند انتهائه.

وأما المتدلي لابد له من الرجوع إلى الأثر أي الكائنات باتباع الكتاب والسنة، لأنه مسلوك به في بحر التحقيق أولا، إلا أنه لم تحصل له مشقة في تدليه، ولا تأمل، لأنه يستدل بنور الذات، ونور الذات أوضح الأنوار المتقدم ذكرها، ولذلك لم يحصل للمستدل به تعب، وأما السالك لما أن استدل بغير الله على الله أولا، تعسر عنه السير والسلوك، وطال سفره في ترقيه، وبقي مسلوكا[3] به في بحر الأثر إلى أن شاهد الحق فيهم مكمون[4] في الظواهر، ولا يصل أحد ذلك إلا أن دخل ميدان الأفكار، والاعتبار في سير مصنوعاته، وإلا فلا سبيل له إلى ذلك، وأما المجذوب المتدلي يرجع تدليه، ويمر على المقامات بسهولة، ولا يلحقه عناء في تدليه، ويستدل في تدليه بنور الذات على نور الأسماء، وبنور الأسماء على نور الصفات، وبنور الصفات على نور الأفعال، وبنور الأفعال على نور كون الخلق، وبنور كون الخلق على نور صنع الاعتبار، وبنور صنع الاعتبار على نور الفكرة، وبنور الفكرة على نور الذكرة، ومن هنا ابتداء السالك في سيره، ولذلك استدل السالك أولا في ابتداء أمره بالذكر، أي بنور الذكر عن الفكر، وبالفكر عن الاعتبار وبالاعتبار عن الأفعال، وبالأفعال عن الصفات، وبالصفات عن الأسماء، وبالأسماء عن الذات، ومن هنا ابتداء المجذوب، والكلام في هذا المنوال

1- م: بهم.
2- م: بهم.
3- م: مسلوك.
4- كذا في ط، م.

يطول ذكره، واختصرنا في ذكره، وما ذكرنا يكفي لمن أذعن وأراد منازل الأحباب، والله الموفق للصواب بمنه وجوده إن شاء الله.

فتح البصيرة:

ونرجع للكلام في فتح البصيرة، وهو الوقوف في باب التجليات أي تجليات نور الذات الأعلى، وباب التجليات هو عدم إحساس البشرية بحيث لم يبق هناك إشعار بشيء قليل غير الله، ومفتاح باب التجليات بعد النزول من الغيب من سماء الحقوق إلى أرض الحظوظ، الصحو في بقاء التجليات، والمحو لأوصاف الممثلات، والممثلة هنا عندهم خرق العادات في أصناف الكرامات، وهنا في بقاء التجلي تضمحل وتهلك تلك الأشياء، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1]، أي إلا وجه الحق، وهو تجليات نور الذات، ومفتاح هذا التجلي الصحو في البقاء المذكور، واسنانه دوام الحضرة الجليلة، بأدب القرب منه، وعدم الالتفات للخوض في تلك التجليات، لأن السالك مهما خاض في بحر تجليات الذات انهدم عزمه، وانعدم سيره، وبطل اجتهاده، وانحل عقده، وأشرك بالله، لقوله صلى الله عليه وسلم «والخوض في ذاته إشراك»[2] الحديث، وباب البيت لا يستقيم[3]، أي لم يفتح[4] إلا بالأسنان، وأسنانه خمسة، والمجتهدون أصحاب المكابدات والمخالفات لابد لهم من باب يدخلون عليه، وإلا فلا سبيل لهم إلى دخول الإيمان غير الشهادة المذكورة حاصلة لهم بالإيمان الأصلي، فصار لهم مفتاح من غير باب لم ينفعهم ذلك، لكنه يرجى لهم الفضل بذلك كما تقدم الذكر فيه، فبابهم التوبة، ومفتاحهم الذكر أي لا إله إلا الله اعتقادا وجزما، وأسنانه قواعد الإسلام الخمسة وهي الشهادتان باللسان، والصلاة، والزكاة،

1- القصص/ 88.
2- لم نعثر عليه في أي من كتب الحديث.
3- م: يستقام.
4- م: ينفتح.

والحج، والصوم، وهذه الخمسة إن سقط منها[1] واحد، لم يفتح له الباب، كما هو مفهوم معروف عند أهل السنة، كذلك أرباب التجليات أي تجليات الذات لابد لهم من باب يدخلون عليه، ومفتاح وأسنان، فالباب الذي يدخلون عليه الخروج من الكون بأسره، إلى المكون، وهو الله، ومفتاحه عدم الإحساس والإشعار، والغيب في تجليات الحق، وأسنانه خمسة، وهي المحو، والصحو، والبقاء، والعيان، والعجز، هذه إن سقطت منها[2] واحدة لم يفتح الباب، ويبقوا[3] خارج الباب ينتظرون، من فرج الباب التي تكون فيه إلى داخل البيت، ويبقوا[4] تاعبين في مكابدة فتح الباب بذلك المفتاح، لأنه لم يجعلوا له أسنانا صحاحا، بوفق[5] مخرجهم، وإن جعلوها يجعلونها[6] على غير وفق المراد المذكور، فلم يفتح لهم الباب ويحصل لهم التعب بوقوف الباب، وطول المدة حتى يئول أمرهم إلى الإياس من فتحه، فيرجعون من حيث جاءوا والعياذ بالله، أو يكسر الباب فيخرج له حافظ البيت فيضرب عنقه، أو يدخل من باب آخر غير هذا الباب المأمور به، ويعدل إلى غير باب الحق، وتظلم عليه الطريق، ويتلبس عنه الحق بالباطل، ولا يدري في أي واد هو ذاهب، فيهلك مع الهالكين، وهذا معنى الأبواب المذكورة، كل باب له ما يناسب الداخلين عليه، وإن أخطأوا في واحدة مما هو مناسب لتلك الأبواب ضلوا وأضلوا[7]، يعني ضلوا في نفوسهم، وأضلوا غيرهم المقتدين بهم، وكثير من العباد والزهاد والعارفين رجعوا من الطريق إلى من حيث رحلوا، وهذا لا يكون إلا من عدم اتباع الأمر والنهي، فتلبس عنهم، ولذلك،

1- ط، م: منهم.
2- ط، م: منهم
3- كذا في ط، م.
4- كذا في ط، م.
5- ط: يوفق.
6- ط، م: جعلوهم يجعلوهم.
7- م: وضلوا.

ومن عدم صحة ابتدائهم انهدمت أركان نهايتهم، وهذا معنى تجلي نور الذات، ولا يفهم معنى هذا التجلي إلا من عدم[1] إحساسه، وانهدمت رسومه، ودامت حضراته، وبقيت تجلياته، وإلا ففهمه باطل، ويقينه ناقص، وعلمه غير راسخ، وعمله عدم، ولذلك الصوفية رضي الله عنهم بقيت[2] الإشارة بينهم في هذا السر مرموزة لا يفهمها إلا هم، ولا يعبر عنها سواهم، وجرت هكذا عادة الله في أوليائه مخافة أن تظهر للعامة فيدعيها من ليس أهلا لها، فحفظها الله وسترها عليهم، حرمة لعظيم قدرها، وتشريفا وتعظيما لحرمة الله، لحكمة أجراها هو في خلقه، لا يعلمها إلا هو، وأولو العلم بالله، أي أهل الحكمة البالغة في تلك الإشارات، فهذا معنى فتح البصيرة التي أشار إليها سيدي عبد الرحمان بقوله: إلى فتح البصيرة، وفتح البصيرة هو التجلي المذكور لا يكون إلا للنادر من الخلق، والنادر لا حكم له...»

فضائل السر المصون:

وأردنا الكلام في بعض فضائل السر المصون أي المكنون، الذي غلق عليه وبقي من داخل البيت لم يتوصل له أحد إلا بفتح الباب، أو يستشرف عنه الإنسان من خارج البيت، ولا يتوصل لثمرته.

فانظر سيدي المفتاح صغير الجرم، عظيم القدر، مثاله في المفتاح المحسوس يحمله أحد في جيبه أو شدقه، أو غير ذلك مما يحمل فيه، وهو يفتح على كل كنوز وأسرار، لا تنحصر، يعني المفتاح مثاله كلمة التوحيد، وأسنانه قواعد الإسلام الخمسة المتقدم ذكرها، وبابهم التوبة، يعني إن استقام الإنسان على الكتاب والسنة انفتح له الباب، وفتح الباب هو قبول التوبة، وهي إعدادها[3]

1- م: عدمت.
2- بقت.
3- م: وهما أعدادهم.

قليل، وإمدادها كثير[1]، لم يدخل تحت حصر، وهو إن امتثل الأمر والنهي، ورجع إلى الله بقلب خالص تنوعت أمداده، وحيث يدخل داخل البيت يرى من العجائب والغرائب ما يبهر عقله، ويسر قلبه، ويزهده في دنياه، ويرغبه في آخرته، فعليك سيدي بتصحيح الإرادة يصح لك العزم في أفعال الطاعات...»

المكاسب والمواهب:

ونرجع للكلام هنا في معنى المكاسب، يعني كل أحد يغرس له في ملكه بحسب ما اكتسبه من الأرض، وهو العمل، والسماء، وهو العلم، والغرس هو الجد والاجتهاد، والثمرة هو وجدان اللذة، وقطفان الثمرة هو الغيبة عن الكون والفناء، والأكل هو البقاء في حضرة الله، هذا معنى الاكتساب، والله أعلم. يعني الاكتساب المعنوي عالم له سماء وأرض، وعالم الاكتساب كذلك يعني سماؤه العلم، لأن السماء من السمو أي كل ما ارتفع وعلا فهو سماء. كما علمت، والسماء لها أنوار كالكواكب، والشمس والقمر، ولولا السماء لم تكن الأرض، وبوجود السماء وأنوارها انحطت الأرض وتدكدكت، وعلت شواهق رؤوس الجبال، مقتضى حكمة تلك[2] النور المتجلي عليها، كذلك هذا الملك أي الكسب سماؤه العلم، وأرضه العمل، أي صور الأعمال أرض، ونور السماء علم، ولا يستقيم العمل إلاّ بمقتضى ذلك النور، وهو العلم، وغرسه الجد والاجتهاد أي الغرس الذي أراد أن[3] يغرسه في تلك الأرض هو الجد والاجتهاد، والعزم والحزم، في أفعال الطاعات، وعلى قدر الاجتهاد يغرس له في أرضه الأشجار، وثمر الجنة المجاهدات، كما هو مذكور.

1- م: وأمدادهم.
2- كذا في ط، م.
3- م: - أن.

وأما الثمرة فهي اللذة وبحسب تربيته للغرس تنتج الثمرة، وبحسب ذواقه[1] في الغيبة يأكل من تلك الثمرة، وبحسب غيبته في الأكل يبقى في الحضرة، وبحسب بقائه يتجلى له الله في ذلك...»

معنى المكاسب:

ونرجع للكلام في معنى المكاسب المتقدم ذكرها وما يملكه الإنسان. اعلم أن مقام القلب هو مقام الأبرار، ومقام الروح هو مقام الخواص، ومقام السر هو مقام خواص الخواص، وليس فوق هذا المقام مقام، غير مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو المقام المحمود كما تقدم، وهذا المقام مقام التجليات، وتجلياته بحسب الأنفاس الخارجة منه، يعني كل نفس له تجل غير النفس الآخر، النفس الذي يحدث أقرب من الذي يفوت، وهكذا أنفاس الكامل لم يهمل نفس واحد من أنفاسه في سر من الأسرار، غير تجليات الرب سبحانه، وهكذا كسبه أعلى المكاسب، وأرفع المراتب، وهذا المقام أهله أقل عددا من المقامات المتقدم ذكرها، يعني عددهم قليل، ومددهم كثير،لأن كسبهم التجليات، والتجليات لم تدخل تحت حصر، وكسب غيرهم النعيم في الجنة، شتان بين من نعيمه الجنة، وبين من نعيمه تجليات الحق، فمن كان نعيمه الجنة وغايته الحور والقصور والأنهار فهو في نعيمه، ولكن لم تتم له النعمة إلا عند زيارته للرب سبحانه، وحيث يزور ينسى نعيمه في الجنة، ويتمنى الخلود في تلك الحضرة، ولكنه لم يتم له ذلك، وحيث لم تتم له التجليات بقيس مع حظه في الجنة لا غير، ولا يتم له الفضل إلا عند زيارته ومباشرته في حسن النظر إلى الله، وحيث يرجع إلى الجنة يتأسف عن تلك الزيارة، ولم يجدها إلا عند مقتضى حكمتها، فهؤلاء غايتهم ونعيمهم وسرورهم وطربهم وتمتعهم في نعيم الجنة، كل أحد بمقتضى حكمته في ذلك...»

1- كذا في ط، م. ولعله: أذواقه.

وأما أهل التجليات المتصفون بصفة الحق، أهل الحضرة بالله، لم تفارقهم الحضرة الإلهية طرفة عين، وخلفوا الحظوظ ونعيم الجنة في الدنيا، بحيث لم يشغلهم حظ دنيوي أو أخروي عن حضرة ربهم، فقربهم الرب منه[1] وعرفهم به حق معرفته، فنسوا غيره في الدنيا، وصار شغلهم على الدوام وحدانية ربوبيته، فهؤلاء غايتهم وسرورهم وفرحهم ونعيمهم الحضرة السنية، غير أن لهم أملاكا في الجنة، وحورا وقصورا وأنهارا وثمارا لم تشبه صفات الجنان المتقدم ذكرها، بل هي أرفع وأفضل في الحسن والجمال، لأن الأعلى أرفع من الأسفل في كل حال فافهم، ولكنه نعيم جنانهم يزورهم ويشتاق لهم من حيث إنهم معرضون عنه، ومشغولون بحضرة ربهم عن ذلك النعيم، كما يزور ويشتاق أهل الجنان ربهم ثم يرجعون بعد الزيارة إلى ما أهمهم وحجبهم في دار الدنيا، وهو انتظارهم إلى نعيم الجنة، وهذا شغلهم دائما في الجنة، بخلاف أهل الحضرة لم يفقدوا نعيمهم في الجنة، بل يغيبون[2] عنها في نعيم الحضرة، كما غابوا على الحظوظ النفسانية في تجليات الحق في دار الدنيا، هذا في دار الامتحان، ودار الأكدار والهوان، خرقوا الحجب السبعينية شيئا فشيئا، حتى وصلوا إليه، ثم بعد الوصول خرجوا عن وصلتهم إليه، وبقوا في تجليات وصلة الذات، وزيادة المدد في ذلك، حتى رحلوا من الدنيا إلى الآخرة، هذا منزلهم ومقامهم وحظهم وغايتهم التجليات في دار الدنيا، فما بالك بدار البقاء، وهي الآخرة، حق لهم المنزل الأعلى في ذلك، وهم الأولى به، والأحق، رضي الله عنهم، والمنزل الأعلى هو مقام الفضيلة، والوسيلة، والدرجة الرفيعة، وأعلاها[3] الدرجة الرفيعة، وهي منزلة الغوثية القريبة من المقام المحمود، بإشخاص البصر له، البعيدة عنه، بالوصول إليه، ووضع القدم في ناحيته، بل هو حرام على أحد من الأنبياء، وأحرى الصالحون والأولياء.

1- ط: منهم.

2- ط: يغيبوا. م: يغبوا.

3- م: أعلاهم.

فإن قلت درجة النبوءة رفيعة، وكيف لا يتوصل أحد منهم إلى هذا المقام؟ الجواب في ذلك نعم النبوءة رفيعة حقا، وهي أرفع من درجة الولاية بيسير، ومنزل الصديقية من هذه الأمة قريب من منزل النبوءة، لأن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم، وأعلاهم في الدرجات، يشهد لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"[1]، والكاف هنا تفيد العموم، والمراد بذلك عامة الأنبياء، لا الرسل عليهم الصلاة والسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم قال "كأنبياء بني إسرائيل" ولم يقل كرسل بني إسرائيل، ولذلك خصص علماء هذه الأمة وشبههم بأحوال الأنبياء، وظاهر الحديث يدل على أن علماء هذه الأمة خصصهم وفضلهم على جميع خلقه، حتى حصل لهم الفضل العظيم، والشرف الجسيم، في هذا المحل، وهو مقام الدرجة الرفيعة، يشهد لهذا قول سيدي عبد الكريم الجيلي حيث شاهد هذا المحل قال: رأيت عن يمين هذا المقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ناظرا ببصره إلى وسطه، ورأيت طائفة من الرسل والأولياء في جانبه الأيسر شاخصين بأبصارهم، إلى وسط هذا المحل، ورأيت سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم شاخصا ببصره إلى سقف العرش، طالبا المقام المحمود الذي وعده الله به، وهذا دليل على أن هذا المقام جامع الأنبياء والرسل، غير أنهم يتفاوتون بالمراتب، الرسل أعلى من الأنبياء، والأنبياء أعلى من الأولياء، بمنزلة النبوءة لا غير، وأما المحل جمعهم، ومقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أرفع من درجات[2] الكل، لأنهم كلهم شاخصون بأبصارهم إلى وسط المحل، وذلك هو مقام أرادوا النزول فيه، وسيدنا محمد شاخص ببصره إلى ما فوقهم وهو سقف العرش، لأنه المقام المحمود الذي وعده الله به، أراد النزول فيه، وكل أحد شاخص ببصره إلى منزله الذي وعده الله به، لأن الجنة الأولى سقفها الجنة الثانية، والثانية سقفها

1- حديث ضعيف

2- م: درجة.

الجنة الثالثة، والرابعة سقفها الجنة الخامسة، وهكذا إلى المقام المحمود، فإن سقف جنته سقف العرش لأنه هو أرفع الجنان، وجنته تسمى جنة الذات، وأرضها سقف العرش، وسقف الجنان الستة العرش، غير أن كل جنة سقفها التي فوقها، والعرش سقف الكل، والجنة السابعة هي باطن العرش، وسقفها العرش، وسقف العرش هو مقام نبينا صلى الله عليه وسلم، وسقفه حجب العظمة، أي عظمة الرب المتصفة بها ذاته، ولا فوق هذا المقام مقام، غير نور ذات الله سبحانه وتعالى، هذا المقام مسكوت عليه، لا كلام فيه لأحد غير نبينا، له المدخل في ذلك، قال صلى الله عليه وسلم "إن المقام المحمود أعلى مكان في الجنة، وأنها لا تكون إلا لرجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك الرجل"[1]، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه وعده الله به، فنؤمن ونصدق بما قاله، فإنه "لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى"، وهذه الجنة تسمى جنة الذات، وأرضها سقف العرش، وجنة الدرجة الرفيعة جنة الصفات، وأرضها العرش، والدرجة الرفيعة لا تكون إلا لرجل واحد، في فرد الزمان فقط، ليس فوقها مقام غير مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، وأظن هذه أي الدرجة الرفيعة تختلف باختلاف الأشخاص، وأحرى العلماء فأولها الدرجة، وفيها[2] علماء هذه الأمة أي الصديقون، والرفيعة منها فيها الأنبياء عليهم السلام، واسم الدرجة يطلق على درجات كثيرة، والدرجة هي أول منازلها، والرفيعة هي أعلى الدرجة، والدرجات لم تكن على استواء واحد، وإنما تختلف الأدنى فالأدنى، والأعلى فالأعلى، وهي مقامات لم تنحصر، وأهلها أقل عددا من أهل الجنان، قليل عددهم كثير إمدادهم، كما أن أهل الجنان كثير عددهم، قليل مددهم، لأن هؤلاء مددهم التجليات، والتجليات لم تدخل تحت حصر، ولم يقطعها عليهم شغل من نعيم الجنة، لأن الجنة مفتقرة لهم، كما تقدم، وتشتاق لهم،

1- لم نعثر عليه في أي من كتب الحديث.

2- م: فيه.

ويتطاول أعناق أهلها، ونعيمها وحورها لهم، بحيث لم يشعر الولي بها حتى يدخل النعيم فاه تلذذا بذلك الولي، ويأتيه[1] أزواجه ويلاعبونه، ويشتغلون بالسرور معه، والفرح به، وهو غائب عنهم، في حضرة ربه، حتى إن رآهم على تلك الحالة يوفي لهم حقوقهم، ويوديها في أسرع من طرفة العين، أي يطوف على أزواجه في ساعة واحدة، ولم يشغله ذلك المرور عليهم عن الحضرة، بل هو أغناه حضوره مولاه، وملتذ به، وغائب فيه، وأزواجه ملتذون به غاية اللذة، لأنهم لم يشهدوا في الجنة سواه، وهو قرة أعينهم، وكيف لا يكون ذلك غاية مرادهم؟ وهو له النعيم المقيم في الحضرة، وكيف يكون له شغل يتلذذ به غير حضرة[2] ربه؟ وإنما غاية اللذة والنعيم مخلوقة، تكرم بها على أصحاب الحظوظ أي الذين عملوا الأعمال في دار الدنيا لأجل مجازاتهم بذلك، فجازاهم بأحسن ما عملوا، وغيبهم في تلك النعم عن حضرته، غير النادر بقى لهم، فغيبهم في النظر إلى وجهه الكريم، فكفاهم ذلك منه، بحسب أحوالهم كما تقدم، والله أعلم، وهذا معنى النعيمين المقيمين، نعيم الجنة ونعيم الحضرة، شتان ما بينهما.

معنى مقام الدرجة الرفيعة:

اعلم أن الدرجة الرفيعة هو المقام الرفيع في الجنان السبعة، كما هو مذكور في سيدي عبد الرحمان باش تارزي رضي الله عنه، فانظره تجد الأمر في ذلك واضحا إن شاء الله، ولذلك خصص الله تعالى درجة الأنبياء عليهم السلام، أي درجة النبوءة على درجة الولاية، أي رفعها وخصصها بهم دون غيرهم من الخلق، وهو مقام رفيع يقربه الولي الكامل، وينال من بركات فضله فضلا عظيما، ولم يلحقه بالمنزل يعني أن فضل ذلك المقام وإحسانه وكرمه يذوقه الإنسان، ويتجرع منه كئوسا عظاما، وهو لم يحل فيه أي لم يقم فيه، لأنه مخصوص

1- ط، م: يأتونه.

2- م: - حضرة.

بأهله، وهم الأنبياء عليهم السلام، وهذا مثاله يحصل بالتجليات، أي تجليات الذات، لأن هذا المقام جنته جنة الصفات، والصفة معرفة بالذات، فصارت تجليات هذا المقام تجلي الذات من حيث الذات، فافهم، وتجليات الذات مخصوص لأصحاب هذا المقام، وهذا المقام مقام التجليات ليس فوقه مقام سوى تجليات أرفع منها، وتجليات الحق أي الذات حصلت لهذاالولي الكامل، وحيث حصل له هذا الفضل لم ينحصر مقامه، وصاحب مقام التجليات لم يفته مقام، لأن تجليات الذات هو المقامات، ومن حل فيه نال السعادة العظمى التي لم ينلها أحد، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في هذه الطائفة: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، وتمنى موسى عليه السلام أن يكون من أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى لها من الفضل الجزيل، ما لم يكن لغيرهم من الأمم قبلهم، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا حتى علم فضلهم، وتبين له أمرهم، أي أمر هذه الطائفة، وأخبر عنها وكلم موسى بذلك تكليما، وقال له موسى: كيف يكون أمرهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم أجبه يا غزالي[1] فأجابه في طي العدم، إلى غير ذلك مما رآه موسى في فضل هذه الأمة، وهو كثير، فسلم موسى عليه السلام الأمر لهذه الطائفة، وتمنى مشاهدة هذه الأمة، ومحاضرتهم مشافهة، لما شهد لهم من عجائب فضلهم، وكثير من هذا شاهده عيسى عليه السلام، وأغرب من هذا، وأعجب حيث ينزل عليه السلام إلى الأرض ليعدلها، يحكم بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم، ويملأ الأرض قسطا أي عدلا بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك نوح عليه السلام، وكذلك آدم عليه السلام كلهم أخبروا بفضل هذه الأمة، أحرى نبينا عليه السلام، وهذا كله من بركاته صلى الله عليه وسلم، ونورهم من نوره، وفضلهم من فضله، وشرفهم من شرفه، ولولاه لم يخلق الوجود بأسره صلى الله عليه وسلم...»

1- م: غزال.

«...وطبقات الجنة ثمانية، فالطبقة الأولى تسمى بجنة السلام[1] وجنة المجازاة، والثانية تسمى بجنة الخلد، وجنة المكاسب، والثالثة تسمى بجنة المواهب، والطبقة الرابعة تسمى بجنة الاستحقاق، وجنة النعيم، وجنة الفطرة، والطبقة الخامسة تسمى بجنة الوسيلة، والطبقة السادسة تسمى بجنة الفضيلة، والطبقة السابعة تسمى بالدرجة الرفيعة، والطبقة الثامنة تسمى بالمقام المحمود، وهذه الثمانية[2] المذكورة للخلق الموعود لهم بذلك، ما عدا المقام المحمود فإنه لرجل واحد، وهو خير خلق الله سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ولا يشاركه أحد في ذلك المقام، غير أن الرسل غيره عليهم الصلاة والسلام لهم المنزل في المقام، وهو أعلاهم أي أرفعهم في المقام المحمود، اسم المقام يعم الرسل كلهم، واسم المحمود يخص رجلا واحدا، وهو محمد صلى الله عليه وسلم كما أن الدرجة الرفيعة لها اسمان مخصوصان بها من غيرها من الجنات[3] المتقدم ذكرها، كذلك المقام المحمود له اسمان يخصانه، ومثال ذلك أن الجنان السبعة كل جنة منها يخصها اسم واحد، يعني كجنة المكاسب، وجنة المواهب، وجنة عدن، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة الوسيلة، وجنة الفضيلة، هذه الدرجات[4] السبعة، كل باب منها يسمى بمقتضى اسمه.

«وأما الدرجة الرفيعة لها خصوصية على ما قبلها لأنه مقام رفيع عن غيره، وغيره من الجنان يكنى باسم الجنة، كجنة المكاسب، الخ، وهذه الدرجة تكنى الرفيعة لرفعة شأنها وقدرها من غيرها، كما أن المقام المحمود يكنى بالحمد، لأنه جمع المحامد كلها، ولم يبق شيء من المحامد إلاّ وهو داخل في هذا المقام،

1- م: الإسلام.
2- م: + أبوابا.
3- م: الجنة.
4- م: الدرجة.

أي المقام المحمود، ومقام الحمد أرفع من مقام الرفعة، لأن الرفعة تطلق على كل ما سما وارتفع، أي علا، والحمد يطلق على محامد الله كلها ما علم منها، وما لم يعلم

وبقى بحث في الدرجة الرفيعة والمقام المحمود المتقدم ذكرهما، وأردنا أن نبين بعض ما أشكل فيهما! وشوش الخاطر، لأن الدرجة الرفيعة مقام خواص الخواص، والمقام المحمود لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونحن ذكرنا الدرجة الرفيعة فيها الصديقون من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، وفوقها أي سمو الدرجة فيها الأنبياء عليهم السلام، وذكرنا أن المقام المحمود يعني المقام تجتمع فيه الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، والمحمود فيه محمد صلى الله عليه وسلم فنقول في ذلك، نعم إن الدرجة الرفيعة مقام عال، وهو أعلى الدرج، وأرفع مما تحته، إلاّ أنه تجتمع فيه المقربون من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، وفوقهم في المقام الرفيع الأنبياء، لأنه مقام عظيم، يسع الكل، ولا درجة فوق هذا سوى مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك هذا المقام وسع المقربين والأنبياء عليهم السلام، وفضل الله أوسع، وفوق هذا المقام المقام المحمود، والمقام المحمود أرفع المقامات، وأعظمها[1] لأن مقامه لم يعبرعنه أحد بل كلت الألسنة عن النطق بذلك، أنه تجتمع فيه الرسل عليهم السلام، وأرفعهم مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك فضل الرسل الأنبياء بهذا المقام، وهو أعلى من الدرجة الرفيعة، وفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الرسل عليهم الصلاة والسلام بالمقام المحمود، وهو أعلى المقامات، والمقام المحمود لا يكون إلاّ لرجل واحد، ولا ينازعه فيه أحد، ولا يطمع فيه أبدا بل هو لسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول إن الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة لا تكون إلاّ لسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه

1- ط، م: أعظمهم.

وسلم، ولا لأحد في ذلك مدخل البتة، الجواب في ذلك نعم إن الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة لنا أن ندعوهما بها لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يعني قولنا اللهم أعط لسيدنا محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته به أنك لا تخلف الميعاد، وأجزه عنا ما هو أهله، هذا الدعاء منا له أفضل الدعاء، وأشرف الوسائل، وهو تعظيم لمقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتشريف لمنزله المحمود وزيادة لنا في الأجر، ورفع الدرجات لا غير، وأما مقامه فهو محمود مرفوع مصون محفوظ معصوم عن أن يعلله[1] شيء، ولا يزيد فيه دعاؤنا ولا ينقص منه غير ذلك، إلاّ أن الدعاء بهذا الدعاء تعظيم لمقامه المحمود لا غير، وزيادة لنا في الخير، والوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة حاصلة[2] له في مقامه المحمود لا تفارقه[3] قط، وقيل أعطاه الله الوسيلة، وهو أعظم الوسائل إلى الله تعالى في كل حال، وهو في نفسه وسيلة وعطية من الله لخلقه، ولا وسيلة أعظم منه صلى الله عليه وسلم، وأعطاه الفضيلة لأنه هو أعظم الفضائل، وهو في نفسه فضل ومنة من الله لخلقه، ولا فضل ولا منة أعظم منه صلى الله عليه وسلم، وأعطاه الدرجة الرفيعة، أي أعطاه المكان الرفيع عنده، وأسكنه حضرته، وأعلى منزله عنده، وأعطاه الشفاعة، وأولاه بما هو دين غيره، وهو أول من يؤذن له في الشفاعة يوم القيامة عند شدة الوقوف والقلق، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، كما قال له تعالى، الجنة حرام على غيرك حتى تدخلها أنت وأمتك، وهذه هي الدرجة الرفيعة عنده صلى الله عليه وسلم، لأنه لم تهمه نفسه، ولا مقامه المحمود، ولا رفعة درجاته، وإنما همه من أمته صلى الله عليه وسلم، وهذا معنى دعائنا له بذلك، وإنما غاية الدعاء بذلك زيادة لنا من فضله، ورفعة وتعظيم لمقامه

1- م: يعلاه.
2- م: حاصلان.
3- م: لا يفارقونه.

صلى الله عليه وسلم، لا غير، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته به، أي أنزله المقام المحمود عندك الذي وعدته به، ولم تعد به غيره من الأنبياء والرسل، وهو المقام المعلوم أي مقام الشفاعة الذي ليس لأحد فيه مدخل غيره، أي ابعثه يا ربنا مقاما محمودا في الشفاعة، كما بعثته في الدنيا مقاما محمودا، وهو إتمام نعم الإيمان بالكتاب والسنة، أي ابعثه من قبره الشريف المقام الذي وعدته به، وهو مقام الشفاعة لعامة الخلق وخاصتهم، إنك لا تخلف الميعاد، وهذا هو أعظم المقامات عنده صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يهمه شيء غير شفاعة الخلق التي[1] وعده الله بها دون غيره، وخصوصا أمته حين يقول الله رحمتي رحمتي، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أمتي أمتي، لم يبق أحد منهم إلاّ ويدخل الجنة ببركاته، صلى الله عليه وسلم، لأن بركاته وأفضاله عمت الخاص والعام من أمته، صلى الله عليه وسلم، هذا معنى عطاياه في الفضل الذي ذكره في الدعاء، وقيل أعطه، أي أعطنا يا ربنا الفضل والوسيلة من فضله ووسيلته، والدرجة الرفيعة، أي اعل درجتنا يا ربنا في الجنة عندك، بفضله ووسيلته، وارفع لنا مكانها بعزه وجلاله، أي مكان الدرجة الرفيعة، وهذا الدعاء فضله عائد علينا نحن جميعا، وأما هو فغني عن دعائنا، ولا يستحق الزيادة مناله، لأن مقامه محمود رفيع، جل أن يرفعه ويعزه شيء مما يصدر منا له، من صلاة أو دعاء أو غير ذلك، مما فيه زيادة في مدده، وإنما مدده بمدد الله لم ينقطع، ولا يتوقف، ولا يزداد، وإنما الزيادة والنقص من خصائصنا نحن، وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمحال عنهم ذلك، وإنما يتفاوتون في المراتب بالزيادة، وأما النقص فمحال عليهم، أحرى نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه خير خلق الله، وكيف يكون له احتياج وافتقار لغير الله، حتى يزيده أو ينقصه، وهو افتقر إليه الكون بأسره، واحتاج واضطر لإغاثته صلى الله عليه وسلم،وأما مقامه المحمود الذي أراد أن ينزله فلا كلام فيه أي المقام المذكور، يعني هو أعلى المقامات، وهو مقام

1- ط: الذي.

مرموز، ويكنى بالمقام المحمود كما ذكر، ويعرف بإشارة القول، لا بإشارة المعنى، لأن معناه حقيقته، وحقيقته لا يعلمها إلاّ الله فقط، ولذلك قالوا وابعثه مقاما محمودا، وهذا الدعاء عام وخاص، عام في الشفاعة والرحمة لخلق الله كما ذكرناه، وخاص في مقامه المحمود الذي وعده الله به، وهو أعلى المراتب كما هو مذكور، والله أعلم.

اعلم رحمك الله أن الأرض المتسعة لابد لها من الشمس تطلع، وتنشرح عليها لتنتج أشجارها وتطيب أثمارها، وتتفرع أغصانها بأنواع ألوان الثمار، وهذا معناه في الملك المحسوس ظاهر واضح فما بالك بالملك الرباني، إن طلعت عليه شمس المعرفة، فإنه يتسع ميدانه، ويكثر إمداده، وتتقوى عروقه، وهي المحبة أي عروق تلك المكاسب الأصلية فتهيج فروع الأغصان، حتى إن الغصن الواحد من هذا يطبق ما بين السماء والأرض، وثمر ذلك الغصن لم ينحصر، هذا معنى شمس المعرفة إن طلعت على أرض المحب. وأما نور السماء الذي أضاء على أرض العمل مثلا فهي كالنجوم، لأنها تدل على الطريق المستقيم، كما أن نجوم السماء تدل على الطريق في ظلمات الليل، قال صلى الله عليه وسلم **"أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"**[1] الحديث. وأما القمر فضربه أرفع من ضرب النجوم، لأن النجوم دالة على الاقتداء، كما نص عليه في الحديث، وهذا دليل على اتساع الصدر بالإيمان بامتثاله للمسنونات، وضرب القمر في الصدر دال على الانفساح، وانفلاق[2] الصبح دال على البشارة، وطلوع الشمس دال على الانشراح، وحصول المعرفة التامة العامة من الله، منّ الله على الجميع بما أنعم عليهم بمنه وفضله، آمين.

1- حديث ضعيف

2- م: وفلاق.

نعم المكاسب تختلف باختلاف المنازل، فمنزل العوام النفس الناطقة، وكسبهم اتباع الشهوات، وثمرتهم التلذذ بذلك، والحرص والأمل في الدنيا، ومنزل الأبرار الجد والاجتهاد، والسعي في الخلاص من حظوظ نفوسهم البشرية، وكسبهم وجدان حلاوة العبادات، وثمرتهم تجرع محبة المحبوب، ومحاسبة الأنفاس على تضييع نفس واحدة في غير محبة الله، ومنزل الخواص الفناء عن الكون، والاستغراق في المكوّن، وكسبهم الغيبة في حضرة الله، والحضور في تجلياته، وثمرتهم التجافي عما سوى الله، ورفع هممهم عن غير الله، والاستعداد لما عند الله، ومنزل خواص الخواص البقاء بالله، والرجوع إلى صحو معرفة الذات، وكسبهم معرفة أحكام نور التجليات، والعلم بالدّرر النفيسات، وهو الفهم لحقائق النفحات، وثمرتهم عدم رؤية النفس في تلك المشاهدة، والتقدس في ذلك النور بالصفات، والذات، وعدم شوب شمس معرفة التجليات، ومعنى تقدس الصفات والذات هو فناء صفات السالك المحمودة، وعدم إحساسه بتلك الأسرار في صفات تجليات الذات، وبقاء ذات العبد في تقلب أنوار العبادات، وتقدسها في سر حقيقة المأمورات والمنهيات، حتى لا يرى أحد صاحبه، أي الذات لا ترى الروح، والروح لا ترى الذات، وضربت بينهما حجب كمالية، فبقيت[1] الروح تتنعم بحضرة التجليات والبدن يتنعم بأحكام المشروعات، والتجلي هنا على ضربين، تجل شرعي[2]، وتجل حقيقي، وكلاهما على الاستقامة الحقيقية[3]. أما التجلي الشرعي فهو باق بمقتضى حكم ذات العبد لا يفارقه أبدا في هذه الدار، وأما التجلي الحقيقي فهو باق بمقتضى حكم صفات العبد أي روحه، وهو[4] باق معه ملازمه في هذه الدار وفي تلك الدار، لم ينقطع عنه أبدا، بدليل

1- ط، م: فبقت.

2- م: - تجل شرعي.

3- م: الحقيقة.

4- م: وها.

قول سيدي مصطفى البكري في كتابه المعروف بتدريج الأسماء كما تقدم ذكره، والتقدس عندهم هو الاختلاط والامتزاج أي اتصاف الصفة بالصفة، والذات في الذات، أي فناء ذات العبد عن المشاق التي كان يجدها، والكسل والتراخي في ذوات العبادات بالخفة والنشاط، والرغبة والتلذذ، الخ، وهذا معنى التقدس، والله أعلم، يشهد لهذا السر قول البوصيري[1] رضي الله عنه:

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

أي فنيت عما كانت تجده من الثقل بتلك الهداية، التي حصلت في القلب، ونشطت لعبادة ربها الأعضاء، أي خفت ورغبت في ذلك من غير تراخ ولا تهاون في أفعال الطاعات، وهذا معنى التجلي، والله أعلم.

والتجلي الحقيقي أي المعنوي أمكن من التجلي الشرعي، أي الحسي، وهو الغالب في الحقيقة، لأن الدلائل والبراهين النقلية والعقلية دالة على الحق وهو الله لا غير، وكل ما يدل على الله عندهم كون لا مزية له، وإنما المزية للنور الموصل إلى ذلك الدليل الذي دل على المدلول عليه، ولو رحلت من الكون حق الرحلة لرأيت تلك الأكوان كلها عدما، وأنت كذلك، وإنما الدال في الحقيقة على نفسه هو الله غير أنه سبحانه لما علم الضعف من خلقه، جعل لهم الكون أي المصنوعات دالة على صانعها وإلاّ فأين يغيب حتى يستدل عليه؟ وأين يحصر حتى يتوجه إليه؟ وأين يقيم حتى يؤتى إليه؟ وأين يسعى حتى يبحث عليه؟ وأي شيء حجبه حتى يكون هو الدليل عليه؟ وأي شيء أبعده حتى يكون هو الذي يقرب إليه؟ وأي شيء قربه حتى يكون هو الذي يبعد منه؟ وأي شيء دل عليه حتى يكون هو الدليل؟ وأي شيء أظهره حتى يكون هو المظهر له؟ وقلت في ذلك شعرا[2]

1- م: البصري.

2- ط، م: شعر.

أنت الظاهر في كل شيء قبل خلق الظواهر

وبعد خلق الأشياء أنت عليهم[1] دليل

ولولا ظهورك فيهم لم تتبين مظاهرهم

ولا علم الحق منهم من المجهول

ولكن أنارت الظواهر بنور قدرتك

حتى أوضح لنا البرهان والدليل

وما الذي يحجبك يا ظاهر حتى يستدل به

وما الذي يقربك لنا يا جليل

وما الذي يكون له قدر حتى يستحق النعت به

إلاّ أنت يا بريا رحيم يا وكيل

حاشا والله أن يكون الكون دالا عليك

وأنت الذي أظهرته يا دليل

نعم، شتان بين من يستدل به، ويستدل عليه، والمستدل به هو الذي يستدل بالله على غيره،والمستدل عليه هو الذي يستدل بالكون عليه، فصار المستدل به أمكن وأرفع من الذي استدل عليه، كما هو معروف، لأن المستدل به مصطلم هالك في شهود الحق، عن شواهد الظواهر، والمستدل عليه باق في الدليل والكشف والبرهان ومفتقر لذلك، وحيث يفارقه الدليل يحجب عن الشهود أي شهود الحق، لأن الدليل غاب، وحيث غاب الدليل غاب المدلول عليه، وهذه صفة المستدلين عليه. وأما المستدلون به فباستدلالهم افتقر إليهم الكون، والافتقار هنا الظهور، وحيث ظهر لهم الكون لم يحتاجوا الدليل به، بل تصرفوا في الكون بإرادة سيدهم في الظواهر، وغابوا في المكون بتجلياته

1- ط: عنهم.

بأسرارهم، حتى كون العبادات لم يبقوا فيه بحظ نفوسهم، بل بقوا في صورتها امتثالا لأمر الله، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ورغبة في الكتاب والسنة لا غير، غير أن غيبتهم في الحق لم تخرجهم عن دائرة أفعال الطاعات، ولم يغيبوا[1] عنها كغيبهم عن غير الله، بل يوفقهم الله بقدرته الصالحة للتحرك في أفعال الطاعات، ويثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة من غير اختيار منهم لنفوسهم، ولا شهود مشقة تحصل لهم في تلك التحركات، بل هو باختيار الله، ووفق مراده، وحسن عوايده أجراها الله فيهم، بصنع عجايبه، لقوله تعالى ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[2]، ظاهر الآية يدل على أن الإنسان حيث يوفقه الله لفعل الخيرات، أي حسن الطاعات، يثبته الله في الدنيا بالقول الثابت، أي ثبوت وحدانية الله في قلبه، من غير تزلزل ولا خلل يكون في إيمانه، حتى يكون حاله ثابتا في الظاهر والباطن. أما الظاهر فصلاح القول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يطلق عليه كل قول صالح. وأما الباطن فصلاح قلبه، أي ثباته على[3] كلمة التوحيد من غير خلل ولا تردد في الإيمان، وفي الآخرة أي يكون ثابتا على حاله الذي كان عليه في دار الدنيا، يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم "**يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه**"[4]، ظاهر الحديث يدل على أن المرء يموت على ما كان يفعله في الدنيا، والذي اشتغل به في الدنيا يكون له شغلا[5] عند الموت خيرا كان أو شرا، والذي يشغله عند الموت يبعث عليه، أي يقوم من قبر، وأثر ذلك الشغل متعلق

1- م: يغبوا.

2- إبراهيم/ 27.

3- م: عن.

4- رواه مسلم.

5- م: مشغلا.

به لا يفارقه طرفة عين، وهذا معنى ما نص عليه صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

ودليل هذا ينبيك في حياتك، يعني في حالة منامك، لأن المرء ينام على ما كان عليه في اليقظة، والذي كان له حرفة وشغل[1] في اليقظة، يجد أثر تخليطه في النوم، ويفعل في نومه[2] ما كان يفعله في يقظته، وهو صحيح مجرب عند العامة والخاصة من غير تأمل ولا خفاء، يعني الذي يسرح الغنم يجد نفسه في منامه العصاة في يده، وهو يكابد في غنمه، والقارئ يجد نفسه مشغولا بقراءته، والخماس يجد نفسه مشغولا بحرثه، والعابد يجد نفسه مشغولا بعبادته، والقبيح يجد نفسه في قباحته، والمحسن يجد نفسه في إحسانه، وكل أحد على حسب حاله في اليقظة يكون عليه في النوم، لأن النوم موته الصغرى، ويدخل فيه معنى الحديث المتقدم ذكره، يعني يموت المرء أي الموتة الصغرى وهو النوم، لأن النوم هو أول عالم من عوالم غيب الآخرة، يشهده الإنسان في حياته، ودليل ذلك أن الإنسان حيث يخالطه النوم ويقرب منه أولا ينسى ما كان عليه في اليقظة، ثم يغلبه النوم فيغيب عن محسوساته فتفارقه روحه حينئذ، وتجول في عالم ذلك الغيب، بحسب مقتضى حكمة منامه، وحكمة ما كان عليه في يقظته، ويبقى البدن مطروحا جسما بلا روح، ما عدا النفس الكائنة فيه، وتقدم الذكر في ذلك وحيث يقضي الله أمره النافذ في ذلك، ترجع الروح للبدن، فيحيى الإنسان ويرجع لليقظة المعلومة المحسوسة، المعلومة بين أهل الدنيا كما علمت، وهذا دليل على أن النوم موتة، وهي أول موتة ماتها الإنسان، ويعرف بذلك سعادة الإنسان وشقاوته، ولو لم تكن هذه موتا[3] لم يغب الإنسان على حسه، ويذق معاني لم يذقها في يقظته، والرجل الصالح يرى

1- ط: شغلا.

2- م: + كيف

3- ط، م: موت.

في النوم الرؤية الصالحة، وترى له، لقوله صلى الله عليه وسلم **"نعم الرؤية الصالحة للرجل الصالح"**[1]، وكذلك الطالح يرى في منامه الرؤية الطالحة، وترى له. وغيبة النوم عالم من عوالم الله المكنونة في علم غيبه، وهو أول غيب يغيبه الإنسان عن حسه، وغيبته تشبه غيبة الموتة الاضطرارية، لأن الإنسان عند قربه للنوم أي حيث يخالطه تثقل جوارحه، ويصير كالمريض الذي أدركته الموت، ويسقط إلى الأرض غلبة عنه، ويسلب منه اختيار اليقظة، ويغمى عليه، وينفتح فوه[2] وتكثر نَفَسُه، ويصير له أنين وشهيق، وغير ذلك مما يطول ذكره في صفة النائم، كما هو معروف، وحيث يرجع من غيبة نومه إلى نهار يقظته، يقوم وهو على حالة الموتى، يعني مصفر[3] اللون متغير الوجه، مقبوض الجوارح، حتى إن كلمه أحد مما يليه لم يجاوبه، ولم يشتغل بكلامه، لأن همه في تلك الحالة منامه، حتى إن كمل حاله، وذهب عنه النوم، يتفكر شغله الذي نام عليه، أي حرفته، ويرجع لها، وإن لم يتم له حال اليقظة، ولم يستكمل المقسوم في النوم تراه ينام ويستيقظ، تارة يرجع لحس يقظته، وتارة يغيب في معنى منامه، حتى يكمل أنفاسه المعدودة في تلك النومة، وإن كملها رجع لإحساس اليقظة، وهكذا الإنسان حاله في دنياه له أنفاس عديدة لا يعلمها إلا الله، أنفاس مخصوصة بالنوم، وأنفاس مخصوصة باليقظة، ولا تأخذ أنفاس اليقظة من أنفاس النوم، ولا أنفاس النوم من أنفاس اليقظة، فصارت أنفاسه معدودة محسوبة، ويحاسبه الله تعالى على كل نفس تنفس به في دار الدنيا، بحيث لم يغب نفس واحد من أنفاس الخلائق إلا ويراه الله، ويحاسبه عليه، بحسب مقتضى الحكمة في ذلك، غير أن أنفاس النوم لم يحاسب عليها أحد قط، ما عدا الفعل الذي كان عليه في اليقظة يكون عليه في حالة النوم كما تقدم، ولا

1- رواه البخاري.

2- م: فاه.

3- ط، م: مسفر.

ذنب عليه في منامه، لأن الإنسان ينام على ما كان عليه في اليقظة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم **"يموت المرء على ما عاش عليه"**[1] ومن جملة ذلك النوم، لأنه أول موتة ماتها الإنسان، وأول غيبة غابها عن حسه، وأول مشاهدة شاهدها في علم الغيب، وأول مبادئ في رؤية الأفعال، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بدا له في الوحي رؤية النوم، ولا زالت تظهر له الرؤية في النوم وتبرز كفلق الصبح، أي انشقاق الفجر الناصح، وقيل إشراق الشمس، ثم بعد ذلك سنة، وهي أرفع من النوم، ثم بعد ذلك هوانية[2] وهي أرفع من السنة، ثم بعدها اليقظة وهو العيان الحسي، كرؤيته لجبريل عليه السلام، ونزول الكتاب عليه، آي وسور، إلى غير ذلك مما فيه ترقية له شيئا فشيئا إلى أن حصل له السلوك، والوصول إلى المقام المحمود، فعند ذلك صار حامدا ومحمودا صلى الله عليه وسلم، فشرع الشرائع، وحقق الحقائق، وسطع نور شمس معرفته في الكون، وبرزت منها المعارف لأمته، وصارت علما موروثا[3] بين أهل العلم، وأظهر الشرائع لأمته ليتميز بذلك الحق من الباطل، وأخفى الحقائق ليبقى سر الله[4] مصونا محفوظا في مكنون خزائنه، لئلا يدعيه كل أحد، وتنتهك حرمة الله ورسوله، فكمل الشريعة بظهور آثارها للخلق، بحيث لم يبق منها شيء خفي عن أهل السنة، وكمل الحقيقة بخفائها، بحيث لم يظهر منها شيء إلا لأهل السر، فتم الدين بالكتاب والسنة، والحمد لله على ذلك، جعلنا الله وإياكم من المتبعين سنته، وهدانا وإياكم للطريق المستقيم بمنه وكرمه، إن شاء الله، ولذلك أخذ أهل الصفة في السير والسلوك إلى مالك الملوك، وجعلوا أول مباديهم في ذلك الرؤية في النوم، ثم الإلهامات الربانية في القلب، فأخذوا في الترقي

1- رواه مسلم.

2- م: فهو انية.

3- م: علم موروث.

4- م: - الله

بالتلقي للواردات الإلهية، والإلهامات الربانية بالقبول. والهواتف النفسانية، والخطابات الشيطانية بالرد، وعدم القبول مما لا يدخل تحت حصر نفساني، وشيطاني، وإلهامي، ورباني، بحسب ما اقتصته الحكمة في ترقيهم، وسلكوا عقبات النفوس بالترقي شيئا فشيئا حتى ظهر لهم الحق حقا، والباطل باطلا، ثم بعد الظهور غابوا، ثم بعد الغيبة حضروا، ثم بعد الحضور بقوا بالله، وهكذا جعلوا طرقهم وحسنوها بمقتضى الكتاب والسنة، فمن أحسن معهم الأدب، وانقاد لاتباع أمرهم عرّفوه الطريق، وأحسنوا له السير، والسلوك، وفتقوا له الحجب الظلمانية، بقدرة الله الصالحة فيهم، وأشهدوه العجائب والغرائب ما لا ينحصر، فهذا شأنهم رضي الله عنهم، فهكذا أخذوه وورثه عن بعضهم بعض، وإن أخطأ أحد أثرهم لم يسلك الطريق، ولم يشم رائحته قط.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية - الجزائر -
2015
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11